

الباب الثانى

ملامح الشخصية المصرية

فى الأءبن الفاطمى والأىوبى

* مناظر البئة الطبعفة .

* صور الحفة السفاسة .

* مشاهد البئة الاجتماعفة .

الفصل الأول

مناظر البيئة الطبيعية

يمثل أدب الطبيعة المصرية شطراً من شخصيتها في الأدب العربي ، وأدب الطبيعة المصرية - كما أقدمه هنا - يعبر عن الكيان المادى للبيئة المصرية في مقابل الكيان البشرى - ، وما يرتبط به ارتباطاً مباشراً من نظم سياسية أو ظواهر اجتماعية ، وإن كان الفصل الحاسم بين الكيان المادى والكيان البشرى أمراً متعزلاً ، فالإنسان ابن الطبيعة وهو بما منحه الله من قدرات خلاقة يؤثر فيها بشكل من الأشكال . وأدب الكيان المادى لا يقف عند تصوير طبيعة مصر الجغرافية ، بل يمتد إلى مظاهر العمران المختلفة مما سبق وجوده العصريين الفاطمى والأيوبي ، أو ما وجد في أثنائهما . ومن ثم فإننى سوف أعرض صور هذه البيئة من خلال جوانب ثلاث :

١ - البيئة الجغرافية ٢ - الآثار القديمة . ٣ - المنشآت المستحدثة

البيئة الجغرافية

للبيئة الجغرافية في أدب هذه المرحلة مظهران ، كانت في أحدهما غرضاً مستقلاً أو غير مستقل ، وفي ثانيهما عنصراً من عناصر البناء الفنى فى الشعر أو النثر ، وسأرجىء الحديث عن المظهر الثانى ، لأننى سأعرضه فى موضع قادم ، وأكتفى هنا بتقديم المشاهد العامة لبيئة مصر الطبيعية من خلال الأدبين الفاطمى والأيوبي .

١ - النيل :

كان النيل وما زال من أهم موضوعات الأدب المصرى ، قلما يخلو منه عمل كاتب أو شاعر سواء من أبنائه الذين تشبوا بين أحضانه ، أو ضيوفه الواقفين من شتى الأقطار وكان النيل موضوعاً جغرافياً ، واقتصادياً ، واجتماعياً ، وجمالياً ، والأدب وعاء ذلك أجمع . وقد أثار فيضان النيل اهتمام الدارسين ، ولكنهم لم يدركوا بوضوح تفسير هذه الظاهرة فى تلك المرحلة التى تتحدث عن أدبها ، وكان بعضهم يرى أن سبب زيادة النيل هبوب ريح يسمى (الملتن) . وفى ذلك يقول الشاعر :

اشْفَعُ قَلِّشَا فِعْ أَعْلَسَى يَدِ عِنْدِي وَأَسْتَنِ مِنْ يَدِ الْحَسَنِ
وَالنَّيْلُ نَوْ فَضْلٍ وَكَوْنُهُ الشُّكْرُ فِي ذَلِكَ لِلْمَلِكِ (١)

وإن لم يترك رجال تلك العصور - بصورة قاطعة - سر فيضان النيل فإنهم تعبدوا
فيضانه في وقت معلوم من الحول ، ويروي أبو الصلت عن المصريين أنهم يقولون : « إذا دخل
أبيب كان للماء بيب » وعند ابتدائه في التزايد تتغير جميع كفياته (لونه أو طعمه أو رنحته)
وتفسد فتصير كالحال الذي وصفه بها تميم بن المعز لبين الله الفاطمي :

أَمَّا تَرَى الرَّعْدَ بَكَى فَاشْتَكَى وَالْبِرْقُ قَدْ أَوْ مَضَ فَاسْتَضْحَكَ
فَاشْرَبَ عَلَى غَيْمٍ كَصَبِغِ النَّجَى أَضْحَكَ وَجَهَ الْأَرْضَ لِمَا بَكَى
وَقَدْ حَكَى الْعَرْدُ أَنْيْنَ الْهَوَى لَكُنْهُ جَوْدٌ فِيمَا حَكَى
وَانظُرْ لِمَاءِ النَّيْلِ فِي مَدَّهِ كَأَنَّمَا صَنْدَلٌ أَوْ مَسْكًا (٢)

وعبر أدب هذه المرحلة عن آثار النيل الاقتصادية والاجتماعية ، ففي زيادته الخصب
والخير ، وفي نقصانه أو طوفانه الهلاك والتشرد والدمار ، ولذلك كان النيل كما يقول القاضي
الفاضل : « مرجوا مخشيا ، فهو يكسو الغضاء ثواباً فضياً ، ويدلى من الأرض ماء سراجا
من النور مضيا ، ويتدافع تياره واقفاً في صدر الجذب بيد الخصب ويرضع أمهات خلجه
المزارع فيأثي أبنائها بالعصف والأب . وقد امتدت أصابعه ، وتكسرت بالموج أضالعه ، ولا
يعرف الآن قاطع سواه ، ولا من يرجي ويخاف إلا إياه » (٣)

ووقف الشعراء أمام النيل يرصدون حركاته وسكناته ، مركزين داخل مجراه ومحلقين
بأبصارهم فيما يحيط بحوافه ، متحدثين عنه من بعيد ، ومعبرين عن أحاسيسهم وقد توسطوه
في الفلك أو الزوارق . فهذا الشاعر « تميم بن المعز لبين الله » يتأمل تراقص الأمواج في
النيل : وهي تتمايل بأعطافها كتمايل الراقصات . :

نظرتُ إلى النَّيْلِ فِي مَدَّهِ بِمَسْوَجٍ يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ
كَأَنَّ مَعَاظِفَ أَمْوَاجِهِ مَعَاظِفُ جَارِيَةٍ تَرْقُصُ (٤)

(١) خطط المقرئ ، ج ٢ ، ط دار إحياء العلوم ، بيروت ، ص ١٠٥ .

(٢) الرسالة المصرية ، لأبي الصلت ، تحقيق د. عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٨ .

(٣) حسن المحاضرة : الميوطي ، ج ٢ ، ص ٣٦٣ .

(٤) ديوان تميم بن المعز لبين الله الفاطمي ، تحقيق حسن الأعظمي ، ص ٢٥٥ .

(ويمد ظافر الحداد) بصره إلى جانبى النهر يتأمل الجسر الذى رسمته أمواج النيل ، وقد استمدت تكسرها وتثنيها من الرياح السكرى التى دفعت الأمواج فشكلت مسار الجسر الذى رسمته أمواج النيل ، وقد استمدت تكسرها وتثنيها من الرياح السكرى التى دفعت الأمواج فشكلت مسار الجسر :

والنَّيْلُ مِثْلُ عِمَامَةٍ شَرِبَ مَحْشَاةً بِأَخْضَرُ
والجَسْرُ فِيهَا كَالطَّرَا زِيَمُوجُهُ رَقَمٌ مَصْرُودُ
تفريكه ما درجت له له الرياحُ من التمسكُ (١)

ثم يتابع الشاعر بنظره سريان النيل حتى إذا بلغ مجراه رأس جزيرة الروضة انحنى عن يمينها ويسارها ، فتبى الجزيرة الخضراء تلوح بعناظرها الجميلة تأخذ الأبصار :

لَهُ يَوْمٌ أَنَا لَهُ النَّيْلُ لِحْسَنِهِ جَمَلَةٌ وَقَفْصِيْلُ
فِي مَنْظَرٍ مَشْرِفٍ عَلَى خَضِرٍ كَأَنَّهُ فِى الظَّلَامِ قَتِيْدِيْلُ
تُبْدِي لَنَا جَانِبًا جَزِيرَتَهُ أَشْيَا بِهَا لِلْعَيْنِ تَأْمِيْلُ
ورقمه جسره ، وتفريكه المر سج وفي نكته للخليج تجميلُ (٢)

ويتأمل « ابن قلاؤس السكندرى » منظر النيل وقت الأصيل ويصف لنا ما رآه فى هذه الصورة :

والتَّيْلُ تَحْتَ ثِيَابِ الْأَصِيْلِ لُجَيْنٌ تَوْشِجٌ بِالْعَسْجِدِ
يحاكسى إذا درجته الصُّبَا بِرَادَةِ تَبْرِ عَلَى مَبْرِدِ (٣)

فإذا مر وقت الأصيل ، وقاربت الشمس والغروب ، راح الشاعر يسجل هذه الصورة التى كونها من النيل والشمس والشفق والهلال :

انتظرُ إِلَى الشَّمْسِ فَوْقَ النَّيْلِ غَارِبَةً وَاعْجَبُ لِمَا بَعْدَهَا مِنْ حُمْرَةِ الشُّفْقِ
غَابَتْ وَأَبْدَتْ شِعَاعاً مِنْهُ يَخْلُقُهَا كَأَنَّمَا احْتَرَقَتْ فِى الْمَاءِ بِالْفَرْقِ
واللهلالُ وَقَدْ وَافَى لِيَنْقِذَهَا فِى إِثْرِهَا زَوْرَقٌ قَدْ صَيِّغٌ مِنْ وَرَقِ (٤)

(١) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ .

(٢) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ .

(٣) الأدب فى العصر الأيوبي ، د . محمد زغلول سلام ، ص ٣٢٢ .

(٤) الأبيات « لابن قلاؤس » ، أنظر فى أدب مصر الفاطمية ، ص ٢٩٧ . الأدب فى العصر الأيوبي : د . محمد زغلول سلام ، ص ٣٢٢ .

وينقل لنا « أبو الصلت » صورة لتلاطم أمواج النيل على شطآنه وقد هبت ريح الصبا
فأماجت كلاهما على الآخر :

ولله مجرى النيل فيها إذا الصبا أرقتنا به في سيرها عسكراً مجزراً
فشط يهز السمهرية ذبلاً ونهر يهز البيض هندية بتراً
إذ مد حاكى الورد غصناً ، وإن صفا حكى مازه لونا ، ولم يعده شبراً (١)

أما « ابن الساعاتى » فقد ركب النهر ووصف السفينة ، وهى تضرب
بمجايفها الامواج :

ولما توسطنا على النيل غصوة ظننت وقلت اليوم باللهم جاذلان
عشاريه إنسانا له الماء مقللة وليس لها إلا المجايف أجانا (٢)

وإذا كان الساعاتى يظن أنه ملا يومه باللهم فى رحلة نيلية ، فإن تميم بن المعز يشعر
بسرعة مرور الوقت فى مثل هذه الرحلة ، وكل لذة قصيرة العمر :

يوم لنا بالنيل مختصر ولكل يوم مسرة قصر
والسفن تصعد كالخيول بنا فى موج الماء ينحدر
فكأنما أمواجه عكن وكأنما دارأته سرر (٣)

ولكن « الجمال أبى الحسين الجزار » يهزه الخوف من طيران القلك ويدرك أن الهلاك قريب
، فالقلك تحوم حول المنايا ولا صديق ثمة إلا الماء :

كنت فى كلة تطير بقلع وهى طورا على المنايا تحوم
أنظر الموج حولها فأخال الـ جيم (تا) لخيفتى وهى جيم
لم أجد لى فيها صديقا حميما غير أنى بالماء فيها حميم
شئتوا قطعها مرارا على الريح ولاشك أنه مظلموم (٤)

- (١) الرسالة المصرية ، « أبى الصلت » ، ص ١٨ .
- (٢) المغرب فى حلى المغرب « لابن سعيد » ج ١ ، ط القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٢٦٨ . والشاعر فى هذه الأبيات يصف زورقا خرج به فى النيل ، مشبهاً له بإنسان العين والنيل حوله بالقلعة ، والمجايف بالرموش .
- (٣) ديوان تميم المعز لدين الله ، ص ٢٤١ . عكن : جمع عكنة وهى ما تطوى وتشى من لحم البطن سمناً وعباله .
- (٤) المغرب فى حلى المغرب ، « لابن سعيد » ، ج ١ ، ص ٣٠٨ .

٢ - البرك :

ومن النيل اندفعت الخلجان ، وتكونت البرك . واخضرت الحدائق والبساتين وأثمرت
الزروع ، وأينعت الثمار ، وأنبئت من كل زوج بهيج وتفنن الأدب المصرى فى عرض صور معبرة
عن مظاهر الطبيعة المصرية فى هذه المرحلة

فبركة الفيل (١) مستديرة كالبنر ، والمناظر فوقها كالنجوم كما يراها « ابن سعيد
المغربى » ويدعوننا إلى الاستمتاع معه بمشاهدتها .

انظرْ إلى بركة الفيلِ التى اكتسفتْ بها المناظرُ كالأمهَدابِ بالبصرِ
فكأنَّما هى والأبصارُ ترمُقُها كواكبٌ قد أداروها على القمرِ
ويطيلُ « ابن سعيد » تأمله فى جمالها وقد قابلتها الشمس بالغدو فيقول :

انظرْ إلى بركة الفيلِ التى نحرَتْ لها الفزائلُ نحرأً من مطالعِها
وظلسلُ طرفك مجنوناً بيهجتها تهيمُ وجداً وحباً فى بدائعِها (٢)

« وبركة الحبش » تبدو وقت انحسار النيل ثرية المباحج كما صورها أبو الصلت أمية ،
وقد زارها فى صحبة من الرقاق :

« فافترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللتنا من نوحها بلوفى رواق ، وطلعت علينا
من زجاجات الأقداح شمسوس فى خلع البدر ، ونجوم فى الصفاء تنور ، إلى أن جرى ذهب
الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء ، فقال فى ذلك بعضنا :

لله يومى ببركة الحبش (٣) والأفقُ بين الضيَاءِ والقبشِ
والنيلُ تحَّت الرياحِ مضطربٌ كصارمٍ فى يمينِ مُرتعِشِ
وقد نسجتها يدُ الربيعِ لنا فنحنُ من نسجِها على قُرُشِ

(١) ، (٢) بركة الفيل : من منتزهات مصر ، تقع فى أرض الطيالة وكان من عادة سلاطين مصر أن يركبوا إليها
بالليل ، وحولها المناظر المسرجة التى تكون منظراً عجبياً انظر : الضبط المقيضية ، ج ٢ ، ١٨٥ وكتاب
القاهرة تاريخها وأثارها من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ ، د . عبد الرحمن زكى ، ص ٩٢ .

(٣) بركة الحبش تقع جنوب مدينة مصر فيما بين النيل وجبل المقطم وكانت تطلق على حوض من الأراضى
الزراعية التى يغمرها ماء النيل وقت فيضانه السنوى وكانت تشمل من الأرض مساحة قدرها ١٥٠ فدان .
انظر كتاب القاهرة : تاريخها وأثارها ، من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ ، د . عبد الرحمن زكى ،
هامش صفحة ٤ .

ونحن فى روضةٍ مَفُوقَةٍ دُبُّجٍ بالنُّورِ عَطَّقَهَا وَوَشِيئِى
فعاظِنِى الرَّاجِ إِنْ تَارِكَهَا مِنْ سَوَدَةِ الِهْمِ غَيْرُ مُنْتَعِشِ (١)

ويتأمل الشاعر المصرى « ظافر الحداد » بركة الحبش من خلال وقفته أمام النيل فيراها مقدره الحدود ، تجمعت فى باطنها المياه ، وأحاطت بها الخضرة ، كأنها عمامة احتضنتها الخضرة والتحفت ثوباً مقوراً :

تَأَثَّلْتُ نَهْرَ النَّيْلِ طَوِلاً وَخَلْفَهُ مِنْ الْبِرْكَةِ الْغَنَاءِ شَكْلَ مَقْدَرُ
فَكَانَ وَقَدْ لَاحَتْ بِشَطِئِهِ خُضْرَةٌ وَكَانَتْ وَفِيهَا الْمَاءُ بَاقٍ مُوقِرُ
عِمَامَةٌ شَرِبَ فِي جَوَاشِنِ خُضْرَةٍ أَضْيِفَ إِلَيْهَا طَيْلَسَانُ مَقُورُ (٢)

وعندما تشرق شمس مصر الساطعة ، وترسل أشعتها على صفحة البركة المفعمة بالماء فإنها تغامزها وتغازلها ، والريح تداعب الموج فى هدوء تارة وفى عنف تارة أخرى وحول البركة الغناء امتدت البسط السنسية :

انظُرْ إِلَى الْبِرْكَةِ الْغَنَاءِ مَفْعَمَةٌ بِالمَاءِ وَالشَّمْسِ مِنْ حَسَنِ تَغَايِرُهَا
وَالرِّيحُ تَلْعَبُ فِي أَمْوَاجِهَا جَدلاً فَمَا تُسَالِمُهَا إِلَّا تَبَارِزُهَا
وَالنَّبْتُ قَدْ حَفَّهَا مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِكُلِّ غَصْنٍ أَثِيْقٍ فَهُوَ حَائِزُهَا
كَأَنَّهَا بُسُطٌ بِيضٌ إِذَا بَرَزَتْ لِلْعَيْنِ مَخْضُرَةٌ مِنْهَا فَرَاوِزُهَا (٣)

ويطل على بركة الحبش من أحد جوانبها مرتفع من الأرض يثرى بأوصافه أذب الطبيعة المصرية حكى « ابن زولاق » أن أمير مصر « موسى بن عيسى » كان واقفاً بالميدان عند بركة الحبش ، فالتفت يميناً وشمالاً وقال لمن معه من الجند : أترون ما أرى؟ قالوا : وما يرى الأمير؟

(١) الأدب فى العصر الأيوبي ، د . محمد زغلول سلام ، ص ٢١٢ ، الرسالة المصرية ، « لأبى الصلت » ص ٢١ ، خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء المغرب الدار التونسية للنشر ، تحقيق « محمد العروسي » ، ص ٢٣٠ .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ، ج ٢ ، ص ٣٩٠ .

(٣) ديوان تميم بن المعز لدين الله ، ص ٢٤٢ .

إذا كان « ابن ممتى » ينظر إلى جمال الخليج الذى بهر سروره ، فإن الشاعر « شمس الدين » ينظر إلى ما يسديه الخليج لمصر من كسب وما يقدمه لها من خير عظيم .

لَهُ دُرُّ الْخَلِيجِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ
حَسْبُكَ مِنْهُ بِأَنْ عَادَتْهُ يَجْبُرُ مَنْ لَا يَزَالُ يَكْسُرُهُ (١)

وقد سار « أبو الصلت » والخليج ، وسجل انطباعاته فى هذه المشاهدة :

« دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة ومصر ، ومعظم عمار به فيما يلى القاهرة ، ورأيت فيه العجائب ، وربما وقع فيه القتل بسبب السكر ، وهو ضيق ، عليه من الجهتين بالليل منظرقتان » . ويقدم لنا أبو الصلت نصائحه قائلاً :

لَا تَرْكَبَنَّ فِى خَلِيجِ مِصْرَ إِذَا أَسْنَدَلَ السِّظْلَامُ
فَقَدْ عَلِمْتَ الَّذِى عَلَيْهِ مِنْ عَالَمٍ كُلِّهِمْ طِفْءَامُ
يَا سَيِّدِى لَا تُسْرِ إِلَيْهِ إِذَا إِذَا هُوَ الظُّلَامُ
وَاللَّيْلُ سِثْرٌ عَلَى التُّصَابِى عَلَيْهِ مِنْ قُضَيْهِ لَثَامُ (٢)

٤ - جزيرة الروضة : (٣)

ولجزيرة الروضة المصرية تاريخ أدبى سجلته أقلام عربية مختلفة على مر العصور فالشاعر الرصاف « ظافر الحداد » يدعونا إلى سماع بدائع وصفه وتشبيهه فيها :

أَنْظُرْ إِلَى الرَّوْضَةِ الْفُرَاءِ وَالنُّيْلِ وَاسْمَعْ بِدَائِعَ تَشْبِيهِهِ وَتَمْثِيلِى
وَأَنْظُرْ إِلَى الْبَحْرِ مَجْمُوعاً وَمَفْتَرِقاً هُنَاكَ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالسُّرَاوِىْلِ
وَالرَّيْحُ تَطْوِيهِ أَحْيَاناً وَتَشْشُرُهُ نَسِيمُهَا بَيْنَ تَفْرِسِكَ وَتَعْدِيلِ (٤)

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ، ج ٢ ، ص ٣٦٠ .

(٢) القاهرة ، تاريخها وأثارها من جواهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ ، د . عبد الرحمن زكى ص ٢٤ .

(٣) قال المقرئى : تطلق الروضة فى زماننا على الجزيرة التى بين مصر والجزيرة وعرفت فى أول الإسلام بالجزيرة وجزيرة مصر ، عرفت الروضة منذ زمن الأفضل بن بدر الجمالى ٤٩٠ هـ . وكانت منتزهاً ملكياً وسكناً للناس إلى أن أنشأ بها نجم الدين أيوب سنة ٦٣٧ هـ قلعة الروضة وأسكنها مماليكه ، وهى عاز الدين أينك عندما أراد تعمير المدرسة المنصورية ثم عمرها ببيرس وأسكنها مماليكه ، خطط المقرئى .

(٤) حسن المحاضرة للسيوطى ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ .

ويقف « الأسعد بن معاني » أمام الجزيرة يخاطبها أكثر من مرة ، فطوراً يصف مفاتن جمالها ، ويرجولها نوام الحياة العامرة باللذات :

جزيرة مصر لا عدتُك مسرّةً ولا زالتِ اللذاتُ فيك اتصألها
فكُم فيك من شمسٍ على غُصنٍ بانهٍ يُميتُ ويُحيي هجرها ووصألها
مغانيك فوق النيل أضحتُ هواجياً ومختلفات المَوج فيها جمالها
ومن أعجب الأشياءِ أنك جنّةٌ ترِفُ على أهل الضلالِ ظلألها (١)

وطوراً آخر يصفها بعلو القمر وسمو المكانة ، ويسجل زيارة السلطان الكامل الأيوبي لها واهتزازها فرحاً بالزائر ، فتمايكت أغصانها ، ورق نسيماها ، وترقرت مياه جداولها وغردت طيورها :

جزيرة مصر أنتِ أشرفُ موضعٍ على الأرض لما حلُ فيك محمّدُ
وفيكَ عملا البحران لكن كفاً ذا على الناسِ أندى بالعطاءِ وأجودُ
وأصبحتِ الأغصانُ من فرحٍ به تمأيلُ ، والأطيأرُ فيك تُقرّدُ
يرقُ نسيماً حين سارَ وجولُ ويشدو هزأرُ حين يرقصُ أملدُ (٢)

ومن بعيد يقف الشاعر « أبو الفتوح بن قانوس الدمياطي » ليطل على الجزيرة فيراها وقد تفرقت منازلها المضيئة كأن النجوم جلت فيها ، وفي كل موضع بها حدقة عين تغازل العاشقين في مراتع اللهب والغزل :

أرى سرحَ الجزيرة من بعيدٍ كأحداقٍ تُغازلُ في المغازلِ (٣)
وطالما أذهبت الجزيرة أحزان المغتربين ، وأبهجت نفوس الناظرين ، يتحدث عنها أبو الصلت فيقول : وقد تفرجت كثيراً في طرق هذه الجزيرة ، فقطعت بها عشيات مذهبات لا تزال لأحزان الغرية مذهبات ، وكنت أبيت بعض الليالي « في القسقاط » على ساحلها فيزدهيني ضحك البدر في وجه النيل ، وركبت مرة في النيل أيام الزيادة ، وصعدنا إلى جهة الصعيد ، ثم

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٣) حسن المحاضرة للسيوطي ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

اتحدرتنا واستقبلتنا الجزيرة وأبراجها تتلألاً ، والنيل قد انقسم عنها فقلت :

تأملُ لحسنِ الصالحيةِ إذ بدتْ مناظرها مثل النجومِ تلالاً
والقلعةِ الغراءِ كالبنرِ طالعاً يفرجُ صدرُ الماءِ عنه هلالاً
ووافى إليها الماء من بعد غيبةٍ كما زارَ مشغوفاً يروم وصالاً
وعانقها من فرط شوقٍ لحسنها فمدَّ يميناً نحوها وشمالاً (١)

وكشفت شخصية مصر عن وجه طبيعتها السندس في كثرة ما رده شعراؤها من أوصاف الرياض الزاهية الألوان ، الزاخرة بحركة الحياة ، فالشاعر « ناصر الدين الحسن بن شاور » يصف لنا آثار التسميم على الأغصان والجدائل في إحدى الرياض :

وروضةٍ توسوسُ الفصنُ بها لما هزا فيها التسميمُ الشمائلُ
قد جنَّ في أرجائها جنولها فهو على وجه الثرى مسلسلُ (٢)

و « تميم ابن المعز » يجول بنظره في روضة خضراء تفتقت فيها أكمام النرجس ، فبرزت ولم تنتظر ، وانتشرت شقائق النعمان تنثر حمرتها في ربوع الروضة وقد أسفرت عن وجهها تلوح فخورة بجمالها حيناً وتستحي حيناً آخر :

بسطُ تخالفَ صبغها ونسجها ما بين أصفرَ كالعقيقِ وأخضرِ
يجمعنُ حسنَ المنظرِ الزاهي الذي راقِ العيونِ إلى كريمِ المخبرِ
فكانُ نرجسها عيوناً أبرزتْ أجفانها لكنها لم تنظرِ
وشقائقُ كستِ الربا من نسجها حللاً كتضريحِ الخلودِ الأحمرِ
متبرجاتٍ ناعماتٍ أكملتْ خفرَ الذليلِ ونخوة المتكبرِ
وغلائلُ زرقٍ نُشرنَ كأنها آثارُ تجميشِ الصدورِ النضرِ (٣)

٥ - البساتين والزهور :

البيئة المصرية غنية بمصادر الحياة ، فعاؤها وفير وتريتها خصبة ، فلا بد وأن تنتشر

(١) المرجع السابق ، ٢٨٥ .

(٢) المغرب في حل المغرب ، ابن سعيد ، ج ١ ، ص ٢٥٩ ، ج ١ ، جامعة فؤاد الأول ١٩٦٢ ، تحقيق د . شوقي ضيف ، وهزا : ساد .

(٣) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي ، ص ٢٠١ .

الخضرة في كل مكان يصل إليه الماء . وأن تكثر الحدائق والبساتين :

لصَرَ فُضُولٌ بِأَهْرٍ لِعِيشِهَا الرُّغْدِ النَّضِيرُ
فِي كُلِّ سَفْحٍ يَلْتَقِي مَاءَ الْحَيَاةِ وَالْخُضْرُ (١)

وقد افتتن الشعراء بوصف البساتين والحدائق والزهور ، فابن سناء الملك ينقل لنا إعجابه ببستان أهده له والده شبهه بالجنة ، ولو ملكه آدم بعد خروجه منها ، لم يحزن ولم يصبه كمد بل لو طمع الكافر أن ينال مثله يوم القيامة لأمن بالله .

وأخذ ابن سناء يصور لنا مظاهر الجمال في بساتينه ، ففي وسطه نهر جميل يحكى ساعة الأصيل ، ونسيمة رقيق ، والزهر فوق الأشجار قلائد في جياذ مسومات ، وما أروع النغم الشجي ينبعث من طيورها التي تذكرنا بصوت (معبد) المطرب المشهور :

جَنَّةٌ مُلِكٌ حِينْ مَلِكُهَا شَكَّكَ فِي أَنَى لِمَ أُخْلِدُ
لَوْ حَلَّهَا أَدَمُ مِنْ بَعْدِهَا أُخْرِجَ لِمَ يَحْزَنُ وَلِمَ يَكْمُدُ
أَوْ طَمَعِ الْكَافِرِ فِي مِثْلِهَا فِي الْحَشْرِ لِمَ يَكْفُرُ وَلِمَ يَجْحَدُ
يَحْكِي أَصِيلَ الْجَوْ فِي نَهْرِهَا سَحَابَةُ الْعَسْجِدِ فِي الْمَبْرَدِ
وَزَهْرَهَا يَحْكِي بِأَشْجَارِهَا قَلَائِدُ تَعْلُو عَلَى خُرْدِ
فَكَمْ عَلَى الْأَغْصَانِ مِنْ مَنَشِدِ بَلْ كَمْ عَلَى الْأَغْصَانِ مِنْ مَعْبَدِ
لَأَسِيئًا مُسْذِرُ مَتَهَا مَقْعَدًا مَامِثِلَهَا فِي الْخُلْدِ مِنْ مَقْعَدِ (٢)

ويجلس الشاعر مرة (ببستان الجليس) وتهيج ذكرياته التي تناساها من قبل ، ولكنه يهيم في البستان يقبل الطل ويلثم الزهر وكأنه ينال من لى المحبوب وثغره ، وقد أثار بعمله هذا وجهات نظر الآخرين ما بين عازل وعاذر :

جَلَسْتُ بِيَسْتَانِ الْجَلِيسِ وَدَارِهِ فَهَيَّجَ لِي مَعَا تَنَاسِيَّتُهُ ذَكَرًا
أَقْبَلُ ذَلِكَ الطَّلَّ أَحْسَبُهُ اللَّيْسُ وَالْتَمُّ ذَاكَ الزَّهْرَ أَحْسَبُهُ التُّفْرَا
وَكَمْ لَأُنْمِ لِي فِي الَّذِي قَدْ فَعَلْتَهُ وَكَمْ قَائِلٌ : دَعَا لَعْلَ لَهُ عُنْرًا (٣)

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ، ج ٢ ، ص ٣٩٢ .

(٢) ، (٢) ابن سناء الملك حياته وشعره ، ج ١ ، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، ص ١٠٦ .

ومن أشجار الزينة المعروفة بمصر شجر الكبر ، وهي شجرة عالية تلفها الأزهار البيضاء التي يشبها الشاعر المصري (ظافر الحداد) بمنسوجات البيئة المصرية وهو نوع من القماش عرف بالقباطى ، وفي أطراف هذا الزهر لون حمرة خفيف الاحمرار كأنه بقايا الخضاب :

كِبَارَةٌ لَاحَ بِهَا	زُفْرٌ عَجِيبُ الْخَلْقِ
كَأَنَّهُ لَمَّا بَدَأَ	فِي شَكْلِهِ الْمَنْقُ
بِيضُ الْقَبَاطِيِّ أَدْعَتْ	أَنْصَافَ قِشْرِ الْقَسْتَقِ
مَنْوَلَةٌ أَجْوَأُهُ	بِشَعْرِ شَيْبٍ يَفْقِ
كَأَنَّ فِي أَطْرَافِهِ	أَثَرَ خَضَابٍ قَدْ بَقِيَ
يُشَبِّهُ مَا أَثَارَهُ	شَخْطُ النَّوَى فِي مَفْرَقِي (١)

ويشبهه (ظافر الحداد) الأبقوانة بثغرافاتنة التي تيقسم تيبها وخيلاء وقد شابهها في عدد من الصفات :

والأبقوانة تحكى ثغراف غانية	تبسمت فيه من عجبٍ ومن عجبٍ
في القدِّ والبرد والرِّيق الشهى	

وطيب الرِّيح واللون والتلْفِيج والشَّنْبِ (٢)

ويصف (القاضي الفاضل) زهر (النارج) قائلا :

نديمي هيا قد قضى النُّجم نحبَّه	وهبُ نسيمٌ ناعمٌ يوقظُ الفجرا
وقد أزهَرَ النَّارنجُ أزرارَ فضةٍ	

تزرَّ على الأشجارِ أوراقها الخضرا (٣)

أما البهاء زهير فإنه يحدثنا عن بستانه الذي كانت له فيه ذكريات ومأرب ، يتلطف عليها بعد فواته فكم مرة خرج إليه مبكرا وكانت السحب قد بكرت إلى البستان أيضاً وأخذت قطرات الماء تتسكب ويعم الكون سكون فيصبح منظراً رائعاً . أما الطل فقد فتق أكام الأزهار فغمرت المكان بطيب الرائحة : وبدت الثمار في أشجارها بديعة المنظر ، لها في سحرها فنون :

(١) ظافر الحداد ، شاعر مصري من العصر الفاطمي ، د . حسين نصار ص ١١٥ .

(٢) حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ٤٢٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢٨ .

للهِ بستانى ومَا
لهفى على زمنى به
ولكم بكرت له وقد
فيروقتى والجو منه
والطلُّ فى أغصانه
وتفتحت أزهاره
وبدا على بوحاته
وكأثما أصالته
فهناك كم ذهبية

قضيت فيه من المآرب
والعيش مخصر الجوانب
بكرت له أيدى السحاب
ساكن ، والقطر ساكب
يحكى عقوداً فى ترائب
فتأرجحت من كل جانب
ثمر كأذ ناب الثعالب
ذهب على الأوراق ذاتب
لى فى الولوع بها مذاهب (١)

ونالت الزراعة المصرية حظاً وافراً من تصوير أبنائها وشعرائها فظافر الحداد « يصور

القمح فى سنابله :

كان سنابل حب الحصيد
كبانس مضمفورة ربيعت
وقد شارفت حين إبانها
وأزحى فاضل خيطانها (٢)

ويبدع أحد الشعراء المصريين فى تجسيد جمال الطبيعة المصرية من خلال عدة مشاهد

جمعت الماء المتدفق والرياض المخضرة والزهر البهيج مختلف الأشكال والألوان :

والعيش مخصر الجنا ب أنيقه
والماء يبسو فى الخليج كأنه
والرؤض فى حُللِ النبات كأنما
والزهر يوهم ناظره بأنّه
فأقاحه ورق وساقط ظله
ولأوجه اللذات فيه برود
أيّم (٣) لسرعة سيره محفوذ
فُرشت عليه ديابج وخزوذ
ظهرت به فوق الرّياض كنوز
در ونور بهاره إبريز (٤)

وكانت « الجزيرة » غنية بمنتمزهاها ، ووفرة شمارها وتعدد أزهارها ، وقد زارها « تميم

ابن المعز لدين الله الفاطمي » . ومن هناك صور لنا تلك المشاهد :

(١) البهاء زهير . د . عبد الفتاح شلبى ، ص ٩٨ ، شرح ديوان بهاء الدين زهير إبراهيم جزينى ، ١٩ ، ٢٠ .

(٢) ظافر الحداد ، د . حسين نصار ، ص ١٢٤ .

(٣) الإيم : الحية .

(٤) الخريدة للعماد الأصفهاني . ج ٢ ، ص ١٢ .

يا يوماً أسعفنا بكل سرور
 ففى جنة قد ذُلت ثمراتها
 وجرى التسييم على ثمار غصونها
 ينساب فى الاكفاف منها جنول
 ما بين أنرج يلوح كأنه
 وكان نرجسه إذا استقبلته
 وكأنما النارج فى أغصانه
 وكأنما نشر الريح ملاحفاً
 وكان سوسناتها خدوداً قد بدت

والطبيعة المصرية غنية بأشجارها ونخيلها وطيورها ، فالنخيل سامقة فى كبد السماء
 تدلت من روعها الثمار كأنها الجوارى الهيف أتت للرى :

والنخل كالهيف الحسان تزيئت قلبسن من أثمارهن قلائدا
 فإذا ما ارتوت سكرت من خمرة ، وتراقصت أغصانها مفتيطة فى نشوتها :

وترقص فى جوانبه غصون كرقص الغيدماد بها السشراب
 وتشدو بينها الأطيار شعوا رخيما للقلوب به انجذاب (٣)

ويتحدث الشعر المصرى عن السواقى التى انتشرت فى البيئة الزراعية المصرية ، يقول :

البهاء زهير :

علا حسن النواعير وأصوات الشحارير
 وقد ططاب لنا وقت صففا من غير تكدير (٤)

(١) اليعفور : ولد البقر الوحشى

(٢) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى ، ٤ ص ٢٥٩ .

(٣) ظافر الحداد ، د. حسين نصار ، ص ٩٧ .

(٤) بهاء زهير ، عبد الفتاح شليس ، ص ١٠٠ ، شرح ديوان بهاء الدين زهير ص ١١٠ .

الصفاء والوضوح صفتان تلمسهما من خلال الأدب المصرى فى حديثه عن البيئة المصرية ، فالشمس مشرقة تتخلل الأرائك كثيفة الأغصان فتشبه سيفاً لامعاً فى يد إنسان ترتعش :

والشمس من بين الأرائك قد حكمت سيفاً صقيلاً فى يد رعشاء (١)

وشمس مصر متوهجة بالضياء غنية بالحرارة فإذا ما انعكست فى وقت الغدو على صفحة الماء بدت وكأنها الجوشن المذهب ، كما يراها الشاعر « وكيع التتيسى » :

غَيْرُ يُدْرَجُ أَمَاجِجُهُ هَبُوبُ الشَّمَالِ وَمَرُّ الصَّبَا

إِذَا الشَّمْسُ مِنْ فَوْقِهِ أَشْرَقَتْ تَوَهَّمَتْ جَوْشَنًا مَذْهَبًا (٢)

وسماء الليل صافية تتألق فيها النجوم حتى إذا لاحت تباشير الضياء سرى فى جو صاف . يقول « ابن النبية » :

وَاللَّيْلُ تَجْرَى الدَّرَارَى فِي مَجْرَتِهِ كَالرُّوْحِ تَطْفُو عَلَى نَهْرِ أَزَاهِرِهِ

وَكوكَبُ الصُّبْحِ نَجَابٌ عَلَى يَدِهِ مَحَلَّقٌ تَمَلَّا النَّبِيَا بِشَائِرِهِ (٣)

ولما كان النهار حاراً والليل معتدلاً صافياً كان لليل سحره الخاص وهذا « ظافر الحداد » يتحدث طويلاً عن الليل ويصور نجومه وهلاله ،

كَأَنَّ نَجُومَ اللَّيْلِ لَمَّا تَبَلَّجَتْ تَوَقَّدَ جَمْرٌ فِي سَوَادِ رِمَادِ

حَكَى فَوْقَ مَمْتَدِّ المَجْرَةِ شَكْلَهَا قَوَاعِ تَطْفُو فَوْقَ لُجَّةِ وَادِ

وَقَدْ سَبَحَتْ فِيهِ الثَّرِيَا كَأَنَّهَا بَنِيْقَةٌ (٤) وَشَى فِي قَمِيصِ حَدَادِ

وَلَا حَتَّ بَنُو نَعَشٍ كَتَنَقِيْطِ كَاتِبِ بِيَسْرَاهِ لِلتَّعْلِيْمِ هَيْئَةَ صَادِ

إِلَى أَنْ بَدَأَ وَجْهَ الصُّبْحِ كَأَنَّه رَدَاءُ عُرُوسٍ فِيهِ صَبِيْعٌ جَسَادِ (٥)

(١) ديوان القاضى الفاضل ، ج ٢ ، ص ٤٤٠ .

(٢) الرسالة المصرية « لأبى الصلت » ص ٢٢ .

(٣) ديوان « ابن النبية » ، ص ٩٢ .

(٤) بنيقة : رقعة تزداد فى نحو القميص لتزيينه .

(٥) « ظافر الحداد » شاعر من العصر الفاطمى ، د . حسين نصار : ص ١١٩ .

وعلى الرغم من ذلك ، فالنهار ليس شديد الحرارة في كل الفصول ، بل إن الشمس نفسها تستحب في كثير من الأوقات .

والشمس في مشرقها تجتلى في حُلل الأشجار في الأحمر
كأنها نارٌ وقد أضرمت من خلف ستر خلق أخضر^(١)
ونسيم مصر عليل :

ما مثل مصر في زمان ربيعها لصفاء ماء واعتلال نسيم^(٢)
ولا يصح النسيم إلا إذا اعتل كما يقول أحد الشعراء :

كلٌ يصح إذا تصح حياته إلا النسيمُ يصح ساعةً يمرض^(٣)
ولكن هذا الجو الصحو قد يتبدل ، ولا سيما في أقصى الشمال ، حيث يسود مناخ
البحر المتوسط ، فتتكاثر السحب ، وتدوى الرعود ، وتعصف البروق ، ثم تتشابك هذه القوى
الطبيعية في معركة كالتى حدثنا عنها « ابن قلاقس السكندري » في قوله

كأنما الرعدُ والسحابُ وقد حلا سويًا والبرقُ قد لاحا
ثلاثةٌ من عدوهم نفروا وقد غدا نحوهم وقد راحا
فسلُّ ذا سيفه ، وبكى هـ ذا ، وهذا من خيفةٍ صاحا^(٤)

٧ - الصحراء :

عاش المصريون حول الأضفاف التي كونها النيل واشتغلوا بالزراعة ومشتقاتها ، وقامت حضارتهم وفنونهم وآدابهم على أساس هذه البيئة فلم يحدثنا شعراؤهم أو أدباؤهم عن الصحراء ولم يستوحوها في أعمالهم الأدبية وذلك لأن صحراء مصر خالية من الحياة أو تكاد ، ولم يكن هناك ما يضطر المصري إلى ترك الحياة الهادئة الناعمة على شاطئ نيله ليقتل الوحوش ويطارد المجرمين ويشقى في الصحارى التي طالما أوجت لغيرهم من الشعراء كثيراً من الموضوعات والصور الأدبية ، وقد نجد في الأدب المصري حديثاً عن الرمل ، وهو - على

(١) المرجع السابق

(٢) ، (٣) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٠٠ .

الأرجح - لا يعنى موضعاً وإنما يشير إلى أن المصريين اتخنوا من رمال الإسكندرية منتدئ
لسمرهم :

ألا هل إلى برد الأصائل بالجمى على الرمل في ظل الأراك إياب ؟
ليالى يزهينى لنيذ حبيكم والفاظه مهما استعدت عذاباً (١)
ومسرحاً للهموم :
وفى عذبات الرمل دون هرقله مسارح نسعى بينها ومراتع
رياض إذا هب النسيم خلالها سعى وهو وهى الخطوفيهن طالعاً (٢)

الآثار القديمة والعجائب المصرية

تحدثت كتب التراث العربى ، كما تحدث الرحالة العرب والأجانب الذين شاهدوا مصر فى
العصور الوسطى عن الأعاجيب التى جذبت أنظارهم وشدت انتباههم فى أرض وادى النيل .
وأدلى أدباء هذه المرحلة بدلوهم فيما رأوه ، عاكسين بذلك بعض الأفكار التى سادت مجتمعاتهم
حول هذه الأعاجيب .

فالقاضى الفاضل يصف الهرمين بأنهما فرقدا الأرض ، وكل شئ يخشى عليه من
الدهر إلا الهرمين ، فإنه يخشى على الدهر منهما (٣)

ويحس « عمارة اليمنى » عظمة البنيان وتفرده فى بديع صنعه الشامخ الذى يتحدى
عوادى الزمن ، ويشعر بما يثيره فى نفسه من إعجاب ، ولكنه يقف حائراً متسائلاً عن السر
الذى يخفيه ذلك البناء الضخم :

خيلى ما تحت السماء بنية تماثل فى إتقانها هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه ، وكل ما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزه طرفى فى بديع بنائها ولم يتنزه فى المراد بها فكرى (٤)

(١) . (٢) ظافر الحداد . د . حسين نصار ص ١٠١ .

(٣) حسن المحاضرة للسيوطى ، ج ١ : ص ٧٩ .

(٤) حسن المحاضرة للسيوطى . ج ١ ، ص ٨٠ .

وعمارة ومعاصروه لم يهتدوا بصورة قاطعة إلى حقيقة الأهرام ، وتكاثرت وتصاربت الأقوال حول أسباب بنائها ، فمن قائل إنها هياكل الكواكب ، أو قبور ، أو مستودع أموال أو ملجأ طوفان (١) .

وسجل « ابن الأثير » وصفه للأهرام ارتفاعا وسعة وإعجابا ، فقال : « من عجائب الآثار ما لا يضببطها العيان ، فضلا عن الأخبار من ذلك الهرمان اللذان هرم الدهر وهما لا يهرمان ، قد اختص كل منهما بعظم البناء وسعة الفناء ، وبلغ من الارتفاع غاية لا يبلغها الطير عى بعد تحليقه ، ولا يدركها الطرف على مده تحديقه ، فإذا أضرم برأسه قيس ظنه المتأمل نجماً ، إذا استدار عليه قوس السماء كان له سهما (٢) .

وقد طاف « أبو الصلت » فى صحبة من رفاقه حولها وكثر تعجبهم من روعتها وأخذوا يتعاطون القول : فقال بعضهم :

بعيشك هل أبصرت أعجب منظراً	على طول ما أبصرت من هرمى مصر
أنافا عنانا للسماء وأشرقنا	على الجوا إشراق السماء أو النسر
وقد وافيا نشزاً من الأرض عالياً	كأنهما نهدان قاما على صدر (٣)

أما « ابن الساعاتى » فقد عدما من أكبر الأعاجيب ، ووصفها بالخلود ، ولم يشأ أن يقف طويلا ياحثا عن أسرار صنعها ، أو يعذب نفسه فى التساؤل عنها ، إن كان ثمة من يجيب ، ولكنه راح يتلمس فى وقرقها الشامخ ، عبرة وموعظة ، فقد أحس فى وقتها بالتبدل الذى كونه الأسف على مر السنين وتوالى الأحقاب :

ومن العجائب ، والعجائب جمّة	دقت على الإكثار والإسهاب
هرمان قد هرم الزمان وأدبرت	أيامه ، وتزيد حسن شباب
لله أى بنىة أزيية	تبغى السماء بأطول الأسباب
وكانما وقفت وقوف تبالد	أسفا على الأيام والأحباب
كتمت على الأسماع فصل خطابها	وغدت تُشير به إلى الأكباب (٤)

(١) مسالك الأبحار ، لابن فضل الله العمري ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ، ج ١ ، ص ٨٣ .

(٣) ١ - الرسالة المصرية لأبى الصلت ، ص ٢٧ . ب - الخريدة ، قسم شعراء المغرب ، ص ٢٢١ .

(٤) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، ج ١ : ص ٨١ .

ويبدو أن الشاعر « ظافر الحداد » كان مهتماً بالظلال في تصويره معالم الطبيعة المصرية ، فهو لا يكتفى بتسليط الأضواء على ما يصفه فحسب ، بل ينشر أشعة مصابيح الكاشفة ليبرز الأبعاد المختلفة المحيطة بما يصفه ، فيصنع من ذلك صورة لها إطار .

فها هو يتأمل الهرمين وبينهما أبو الهول كالرقيب يحول بين المحبين ، ويشترك في الموقف بعض مظاهر البيئة الطبيعية فالنيل يفيض دموعاً أسفاً لبعد الهرمين العاشقين والريح تصرخ باكية حزناً ، حتى سجن يوسف وقف على البعد كئيباً حزناً :

تأمل هيئة الهرمين وانظر	وبينهما أبو الهول العجيبُ
كعمارتين على رحيل	لمحبوبين بينهما رقيبُ
وماء النيل بينهما دموعُ	وصوتُ الريح عندهما نحيبُ
وبونهما المقطمُ وهو يحكى	ركابُ الركبِ أبركها اللُفوبُ
وظاهرُ سجنِ يوسفٍ مثلُ صببُ	تخلفُ وهو محزونُ كئيبُ (١)

ومن أعاجيب مصر التي تحدث عنها أدباء هذه المرحلة « عمود السوارى » (٢) الذي ذكره أحد الشعراء وقد ضاق ذرعاً بالإسكندرية ، فوصف أهلها بالبخل :

نزىل الإسكندرية ليس يُقرى	سوى بالماءِ أو عُمدِ السوارى
وإن تطلب هنالك حرفَ خبزٍ	فلم يوجدْ لذاك الحرفِ قارى (٣)

ولقد أثار عمود السوارى وغيره من الأعمدة القائمة بالإسكندرية إعجاب زوارها ، ولم يدرك عامة الناس أنها بقايا معابد ومدارس يونانية ورومانية ، فدفعهم هذا إلى إحاطتها بالقصص التي تحاول أن تبرر إقامتها ، بل حدا كثيراً من الناس إلى أن يظنوا أنها إرم ذات العماد ، التي ذكرها القرآن في سورة الفجر . قال ابن جبير الذي زار الإسكندرية في سنة ٥٧٨ هـ : « وعائنا فيها أيضاً من سوارى الرخام شيئاً كثيراً علواً واتساعاً وحسناً ما لا يتخيل

(١) بدائع البدائع ، لابن ظافر ، ص ١٢٦ ، الرسالة المصرية ، لأبي الصلت هامش ص ٢٧ .

(٢) قال السيوطي : رأيت هذا العمود لما دخلت الإسكندرية ، وقاعدته ثمانية وثمانون شبراً ، ومن المتواتر عن أهل الإسكندرية أن من حاذاه عن قرب ونمض عينيه ثم قصده لا يصبية بل يميل ، ونكروا أنه لم تحصل إصابته لأحد قط ، وقد جريت ذلك مراراً فلم أقدر أن أصيبه . حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٧٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٨٨ .

بالوهم ، حتى إنك تلقى فى بعض المرات سوارى يقص الجوبها صعوداً لا يدرى ما معناها ، ولا لم كان أصل وضعها .

« وكانت هذه البقاع من أجمل الأماكن بالإسكندرية ، إذ اجتمع فيها البعد عن المدينة وسحر الماضى ، وجمال الحاضر فلا عجب أن تصير موضع نزهة أهل الإسكندرية يخرجون إليها فى مواسمهم ، ويطعمون بها ، ويعقدون مجالس السمر :

سقى الله السوارى بالسوارى ودرت فسى مذاهبها الذهبأ

فكم عيد بها أهدي وأدى حبيباً كان أبعداه اجتناباً (١)

وشجرة العباسى التى قال عنها القاضى الفاضل :

« ومن العجائب شجرة العباسى فى دندار من صعيد مصر ، وهى شجرة متوسطة ، وأوراقها قصيرة منبسطة ، فإذا قال الإنسان : يا شجرة العباس جال الناس ، تجتمع أوراقها وتحترق لوقتها » (٢) :

والبرابى المتعددة التى قال عنها « أبو الصلت » إن فيها من الإحكام وجودة الشكل وحسن التصوير ما يدل على أن عمارها نور عقول راجحة ، وأنه كانت لهم بالحكمة عناية بالغة لا سيما بصناعة الهندسة والنجوم . وقد عند من هذه البرابى : بربا أخميم ، وبربا سمهود ، وبربا دندرا (٣)

المنشآت العمرانية

يروى لنا أرب العمران المصرى قصة الحضارة المصرية الإسلامية العربية التى شهدتها مرحلة وضوح الشخصية المصرية فى أديها العربى فى مختلف الآثار العمرانية بما فيها من إنشاء المدن وإقامة الأسوار ، وتشيد القصور ، ومرافق الحياة العامة وبناء دور العبادة والعلم ، فقد اقترن كل عمل من هذه الأعمال بعظيم فى النولة كان مقصد الشعراء والمادحين فتحدثوا عن أعماله من خلال مديحهم ، وربما اتخذ شائنه وصف هذه الآثار والحديث عنها تكاة لهجائه

(١) ظافر الحداد شاعر من العصر الفاطمى ، د . حسين نصار ، ص ٩٢ .

(٢) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ .

(٣) انظر الرسالة المصرية ، لأبى الصلت ، ص ٢٩ .

كما رأينا موقف الشاعر « ابن داود » مع أحمد بن طولون ومنتشاته في مصر ، وساهم الأدباء الوافدون - الذين استرعى انتباههم ما في مصر من أبنية مختلفة - في تسجيل طرف من أخبارهم ووصفوا هذه الآثار بمدينة القاهرة عامرة منذ ولادتها بالمباهج والمسرات ، مكتظة بسكناها مزدهمة بالمارة في طرقاتها الضيقة :

يقولون سافِرُ إلى القاهرة وما لي بهما راحةً ظاهرة
زحامٌ وضيقٌ وقربٌ وما تثيرُ به أرجلُ السائِرة (١)

لكن ضواحيها هادئة جمعت مسرات كثيرة ، ففي ناحية « الطباله » أرض القرط التي يقول عنها الشاعر :

سقى الله أرضاً كلما زرتُ أرضَها كساها وحلاًها بزينةِ القرطِ
تجلت عروساً والمياهُ عقودُها وفي كلِّ قطرٍ من جوانبِها قرطٌ (٢)

ويطيل أحد أدباء الشام في وصف مباهج مصر والقاهرة ، فيقول عن البرك المنتشرة في ضواحي القاهرة : « وكم من عظيم بركة حركها التسييم بلطفه وطيبها عبير غيرها فضمخها بكفه ... وكم من بط على شط ، وقطقط منقط ، وأين حلوة عرائس نخلاتها ، وطلاوة أوانس قاماتها بمشابهتها في صفاتها ، وغرائس فسيلاتها (٣) » .

ويطوف بالضواحي « الشاعر أحمد بن رسم اسفهلار » طوافاً سريعاً يحييها قائلاً :

حىُّ اليبَّارِ بشاطئى مقياسِها فالقسَمُ الفياحُ بين دِهامِها
فالروضتين وقد تصوَّع عطرها أرج البنفسج في غضارةِ أسِها
فمنازلُ العين المنيفة أصبحت يغنى سناها عن سنا نبراسِها
فخليجُها لذاتُه مطلوبوهُ تسمو محاسنُه علا باناسِها
حافاتُه محفوفةٌ بمنازلٍ نزلتُ بها الأرامُ دون كِناسِها (٤)

(١) القاهرة : تاريخها وآثارها ، من جوهر القائد إلى الجبرتي المارخ ، د . عبد الرحمن زكى وقائل هنين البيتين ابن سعيد المرسي عندما ألح عليه بعض أصحابه في الرجوع إلى مصر مرة ثانية .

(٢) خطط المقرئى ، ص ١٨٤ .

(٣) ، (٤) خطط المقرئى ، ج ٢ ، ص ١٨٩ - ١٦١ .

وقد أحاط بالقاهرة المعزية سور عظيم فتحت فيه الأبواب من بينها باب زويلة (١) الذي يقول فيه الشاعر :

يا صاح لو أبصرتَ بابَ زويلةٍ لعلمتَ قدرَ محطِّه بُنيانا
بابُ تَأزُّرٍ بالمجرَّةِ وارتدى الشُّعري ولأثْ برأسِه كِيوانا
لو أنْ فرعوناً بناه لم يُرد صرحاً ولا أوصى به هامانا (٢)

وتكبر القاهرة المعزية ويمتد العمران بها حتى يلتحم بمصر ، ويرى حكامها ضرورة إنشاء سور عظيم يضم البلدين ، وينهض بذلك العمل « بهاء الدين قراقوش » أحد أمراء صلاح الدين ، وينشط فيه على قدم وساق (٣) . ويرسل القاضي الفاضل إلى صلاح الدين رسالة يطمئنه على مسيرة العمل قائلاً : « والله يحيى الموتى حتى يستدير بالبلدين نطاقه ، ويمتد عليهما رواقه ، فهما عقيلة ما كان معصمهما بغير سوار ، ولا حضرهما ليجلى بلا منطقة نضار (٤) .

وللقصور المصرية شرفات تطل منها على الأدب العريس . فالقصر الكبير (٥) أبهى مكان فى القاهرة المعزية يتأمله القاضي الفاضل بعد زوال دولة الفاطميين قائلاً :

صاحبُ هذا القصرِ كم قُبِلتْ ساحتُه أمسٍ وكم عَظُمَا
وقدرةُ القادرِ فى هدمِه أعظمُ منها فى بناء السَمَا

وقد حوى القصر قاعات وخزانات منها قاعة الذهب (٦) ، وخزانة البينود (٧) التى قضى بها الشاعر القاضي المهذب بن الزبير أياما حبيسا ، ومنها أخذ

(١) روى المقرئى فى خطه عن ابن عبيد الظاهر أن باب زويلة بناه العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله الفاطمى سنة ٤٨٥ هـ ، وتممه أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر . الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ (٢) الكامل فى التاريخ « لابن الأثير » ج ١ ، ص ٤٣٦ . والسلوك للمقرئى ، ج ١ ، ص ٩٠ .

(٣) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

(٤) القصر الكبير ، أمر بيئاته المعز لدين الله سنة ٢٥٨ هـ ، وفى الجهة الشرقية من القاهرة وفيه سكن الخلفاء الفاطميين ، ثم سكن بيته الأمراء الأيوبيون ، وخرّب أولا بئول ، ، خطط المقرئى ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

(٥) ديوان القاضي الفاضل ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ .

(٦) أحاط الفاطميين هذه القاعة بمظاهر القخامة ففرشوها بالحريز وزينوها بالذهب ووضعوا فى صدرها ستائر على عرش الخليفة المحجوب تستره إذا استوى على العرش والتأم المجلس فترفع تلك الستور ، الفاطميين فى مصر ، د . حسن إبراهيم ص ٣٦٩ .

(٧) خزانة البينود ملاصقة للقصر الكبير ، بناها الخليفة الفاطمى لاعزاز دين الله أبو هاشم على بن الحاكم بأمر الله وأصابها حريق سنة ٤٦١ هـ ، ثم تحولت محبساً ، خطط المقرئى ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ . كنوز الفاطميين فى مصر ، د . زكى محمد حسن ص ٤٥

يرسل اعتذارياته ويبيح رجاءه وشكواه وتضرعه إلى الكامل بن شاور ، واصفاً ظلام المكان
وكأبته ،

أيا صاحبي سجنِ الخزانةِ خُلياً من الصبحِ ما يبدو سناه لناظري
فوالله ما أدرى أطرفي ساهراً على طولِ هذا الليلِ أم غيرُ ساهرٍ
وما لي من أشكو إليه أذاكُما سوى ملكِ الدنيا شجاعُ بنِ شاورِ
ويضح الشاعر من ظلمة الخزانة ويتساءل : هل سيرى النور مرة أخرى أم أنه

افتقده بلا أمل في الرجوع ؟ ، ولكنه يتجدد فلا يياس من رحمة الله ، ويستعطف ممنوحه :

أيا صاحبي سجنِ الخزانةِ خُلياً نسيمَ الصبَا يرسلُ إلى كبدِي نَفْحَا
وقولا لضوءِ الصبحِ هل أنتِ عائدٌ إلى نظري أم لا أرى بعدُها صُبْحَا
ولا تياسا من رحمةِ الله أن أرى سريعاً بفضلِ الكاملِ العفوَّ والصفْحَا

أما قصر اللؤلؤة (١) فقد تجانبتَه أطراف الكلمة الموقعة كما تجانبتَه أيدي السلطة
الحاكمة المتغيرة ، فقد كان قصراً للفاطميين ، ثم حل به الأيوبيون وسكنه نجم الدين والد صلاح
الدين الأيوبي ، فراح أحد شعرائهم يتحدث عن ذلك القصر مادحا الأيوبيين :

يا مالك الأرض لا أرضي لها طرفا منها وما كان فيه لم يكن طرفا
قد عجلَ الله هذي الدار تسكنُها وقد أعد لك الجناتِ والغرفا
تشرقت بك عمّن كان يسكنُها فالبس بها العزَّ والتبس بك الشرقا
كانوا بها صدفاً والدارُ لؤلؤةً وأنت لؤلؤة صارت لها صدفا

(١) قصر اللؤلؤة : أحد مباني الفاطميين ويسمى منظرة اللؤلؤة ، وموقعه على الخليج ويشرف على البستان
الكافوري من الشرق ، ويطل على الخليج والبساتين التي على نهر النيل ، من الغرب ، وقد بناه المعز لدين
الله ولما ولي برجوان الصقلي الوزارة سنة ٢٩٦ هـ سكن فيه إلى أن قتل . وفي سنة ٤٠٢ هـ أمر الحاكم
بهدمه ونهبه وبيع ما فيه ، ثم أعيد بناؤه فيما بعد . وقد أقام بهذا القصر والد صلاح الدين بعد وفاة
العاقد لدين لخر الفاطميين سنة ١١٧٠ م ، وبعثما سكنه نجم الدين وقف الشاعر الأحنف بن أبي حصينة
يتحدث عن هذا القصر ومن سكنوه .

انظر القاهرة ، تاريخها وأثارها ، من جوهر القائد إلى الجبرتي المورخ ، د . عبد الرحمن زكي ، ص ٣٦ ،
كتاب السلوك ، للمقريزي ، ج ١ ، ص ١٤٢ .

ولم يرضَ عمارة اليمنى عن موقف هذا الشاعر ، فانبرى للرد عليه متخذاً من القصور

محور حديثه ، وبث أفكاره والتعبير عن موقفه:

أثمتَ يا مَنْ هجا الساداتِ والخلفا
جعلتهم صدفاً حلوا بلؤلؤة
ولأنما هي دارُ حلِّ جوهرهم
فقال لؤلؤة عجباً بيهجتها
فهي بسكانها الآياتِ إذ سكنوا
والجوهرُ الفردُ نورٌ ليس يعرفه
فالكلبُ يا كلبُ أسنى منك معرفةً
وقلتَ ما قلتَه في ثلبهم سخفاً
والعرفُ ما زال سُكنى اللؤلؤِ الصدفا
فيها وشفأ فأسناها الذى وصفا
وكونها حوتِ الأشراقِ والشرفا
فيها ومن قبلها قد أسكنوا الصُحفا
من البريةِ إلا كلٌّ من عرفا
لأنُ فيه حفاظاً دائماً ووفاً (١)

وتفتح لنا صور الأدب المصرى أبواب ودهاليز هذه القصور لنرى فيها حدائق وعمد
وتماثيل ووسط . قال « أبو الصلت » أمية الأندلسي « يصف قصراً بناه على بن تميم بن المعز
بمصر :

للهِ مجلسك المنيفُ قبابُه
مُوفٍ على حُبِّك المجرَّةُ تلتقى
تتقابل الأنوارُ فى جنباتِه
عطفتُ حناياه نُؤين سمانِه
واستشرفتُ عمدُ الرُخامِ وطوهرتُ
فهواؤه من كلِّ قدٍ أميفٍ
فلكُ تحبيرٌ فيه كلُّ منجمٍ
فبدا للحظِّ العينُ أحسنَ منظراً
بموطدٍ فوقَ السُماكِ مؤسسٍ
فيه الجوارى بالجوارى الخُسسِ
فأليل فيه كالنهارِ الشمسِ
عطفَ الأهلَّةِ والحواجبِ والقسسِ
باجلٍ من زهرِ الربيعِ وأنفسِ
وقرارُه من كلِّ خدٍ أملسِ
وأقرُّ بالتقصيرِ كلُّ مهندسِ
وغدا لطيبِ العيشِ خيرَ معرسِ (٢)

(١) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٢٩٢ .

(٢) الخريدة ، قسم شعراء المغرب ، ص ٢٤٧ ، مقدمة ديوان تميم المعز لدين الله الفاطمي ص ٣٢ . وانظر
نمونجاً آخر فى نهاية الأرب للنويرى ، ج ١ ، ص ٤٠٧ ، ٤١١ .

ويحدثنا عمارة اليعنى عما كان فى دار أحد الأمراء من رخام وحدائق وفسيلات :
فمن الرخام مسيراً ومسهماً ومنمنما ومدنهما ومدنراً
فيها حدائق لم تحدها ديمةً أبداً ولا نبئت على وجه الثرى
ويها زرافات كأن رقابها فى الطول ألوية تؤم العسكرا
نوية المنشى تريك من المها روقا ومن بزّل المهارى مشفراً
جبلت على الإقعاء من إعجابها فتخالها للثي تمشى القهقرى (١)

ومن ملامح بيئة مصر الطبيعية التى تناولها الأدب فى هذه المرحلة وصف مدارسها ومدنها . فعندما أنشئت المدرسة الصالحية راح أبو الحسين الجزار يهنيء الملك الصالح نجم الدين أيوب قائلاً :

ألا هكذا يبني المدارس من بنى ومن يتغالى فى الثواب وفى البنا (٢)
وقد دفن نجم الدين أيوب بمدرسته بالجناح الذى كان مخصصاً لتدريس الفقه المالكى فرثاه أحد الشعراء قائلاً :

بنيت لأرباب العلوم مدارساً لتجوبها من هول يوم المهالك
وضاقت عليك الأرض لم تلق منزلاً تحلّ به إلا إلى جنب مالك (٣)
وفى عصره تعرض المشهد الحسينى لحريق ولم يكن الصالح نجم الدين حاضراً فخرج نائبه الأمير جمال الدين بن يعمر ليشرف على إطفاء الحريق بنفسه . فقال أحد الشعراء :
قالوا تعصب للحسين ولم يزلّ بالنفس للهول المخوف معرضاً
حتى انضوى ضوء الحريق وأصبح المسود من تلك المخاوف أبيضاً
أرضى الإله بما أتى فكأنه بين الأنام بفعله موسى الرضى (٤)

(١) ديوان عمارة ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) ، (٣) حسن المحاضرة للسيوطى ، ٢ ، ص ٢٦٢ .

(٤) خطط المقرئى ، ٢ ، ص ٢٨ . قال ابن عبد الظاهر أن طلائع بن رزيك قصد نقل الرأس الشريف « رأس الحسين من عسقلان عندما خاف عليها من الفرنجة ، وبنى جامعة خارج باب زويلة ليدفنه به ويفوز بهذا الفخار ، فقلبه أهل القصر على ذلك وقالوا : لا يكون إلا عندنا ، فعمدوا إلى هذا المكان ، وبنوه له ونقلوا الرخام إليه وذلك فى خلافة الفائز على يد طلائع سنة ٥٤٠ هـ خطط المقرئى ج ٢ ص ٢٨٤ .

وقد أسس أحد ولاية مدينة قوص مدرسة للحديث (١) ، وحبس لها وقفا معلوما تحدث عنها الشيخ « أحمد بن هبة الله بن موسى الشافعي » في إحدى خطبه فقال : « الحمد لله أسعد جد من جد في إحياء سننه ، وأصعد من كان سابقا في مضمرة التقرب إليه مستتافى سننه .. » أما بعد فإن الأبنية كرائم تتفتح عن زهرها ، وغمام تتوضح عن مطرها ، وأصداف تفتخر بنورها ، وضمانر تسفر البصائر والأبصار عن مضمرةا ، ونواطق بحسن الآثار وإن كانت صوامت ، ومهارق تسطر فيها أخبار أهلها المنفصلة وإن كانت ثوابت ، وأجلها وأحلاها ذكراً ، وأسماها وأسناها قدراً وأولها وأولها مسرى ، وأنفحها وأفيحها طيبا ونشراً ، وأرحبها وأرحبها فناءً وأفسحها وأفصحها ثناء ، دارُ دارٍ فضل حديثها وحديث فضلها ، وسار بفخرها وعزها المثل السائر حتى عز وجود مثلها وشاكلت مهابط وحى الله المحجوبة بأهل شرفها وشرف أهلها ، فأسست على تقوى من الله ورضوان فجانبتها الشوائب ، وعدتها ، ونثرت في وكيرتها جواهر الكتاب والسنة فجلتها لما حلتها وكستها العزائم السابقة والهمم الشائقة ظل المحاسن والحسنات وما وكستها ، فأصبحت بحمد الله كعبة تتنايبها وفود الاستفادة زيادة وعكوفها ، وجنة تبعد عن أعين المتأملين شئوا وتدنو من أفواه المؤملين قطوفها ، وفلكا بما جللت من الأنوار الزواهر ، وتاجا بما كللت من جواهر النفائس ونفائس الجواهر ، ومعلما للعلم قضت السعادة من الأزل بينائه ، وعلمنا تترزين به الطلبة جادت به يد الدهر على أبنائه ، ألا وهي (هذه) المدرسة الشريفة موقعها ، الشريعة مطالعها ، الكريمة متازعها ، العميمة مناقعها » (٢)

وانطلق أدباء الطبيعة المصرية يتجولون في مختلف أرجائها ، ناقلين مشاهد من أقصى الشمال وأخرى من أقصى الجنوب .

« فالشاعر أبو الحسين الجزار » يصور لنا الإسكندرية بموقعها وأثارها وقصورها وأسوارها وما يعكسه في نفوسنا جمالها الساحر البيع :

(١) هي المدرسة التي أنشأها سابق الدين والى قوص ، وجعل عليها الشيخ الإمام أبا الفتح محمد بن علي

الفشيري ، المتوفى حوالي سنة ٧٢٠ هـ : انظر الطالع السعيد للأقوي ص ٦٢٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٩ : ١٤٠ .

أرى الإسكندرية ذات حُسنٍ
 هي الثغر الذي يبدي ابتساماً
 وكم قصرها أضحى كحصنٍ
 يرصُ قصوصه بانّيه رصاً
 لها سُورٌ إذا لاقى الأعدى
 أحاط بسورها بحرٌ أجاجٍ
 بديع ما عَلى من مزيدٍ
 لتقبيل العُفاة من الوفودِ
 منيع لا كزبدٍ من جريدٍ
 يفصُّه على نظم العقودِ
 يقابلهم بوجهٍ من حديدٍ
 ومنهلُ أهلها عذبُ الوردِ (١)

وقديماً أقام الشاعر العربي الكبير « دعبل الخزاعي » في مدينة أسوان واليا من قبل
 المطلب الخزاعي سنة ١٩٨ هـ ، وقال فيها :

وإن إمراً أمست مساقط رأسه
 حللت محلاً يقصر الطرف دونه
 بأسوان لم يترك له الحزم معلماً
 ويعجز عنه الطيف أن يتجسماً (٢)

ويفصل أحد شعراء الصعيد ملامح هذا الجمال الذي قصر طرف « دعبل » عن وصفه
 فيقول :

أسوان في الأرض نصف دائرة
 في جبلٍ الفتح منعةٌ وعلا
 ونزه الطرف في جنابها
 هديرها يذهب السقام وما
 وحسب سنّها لا أراك مبدعه
 الخير فيها والشرقدُ جُمعا
 لمن بأعلاه في الدجا خضعا
 ففيه سر لمن رأى ووعى
 بها من الماء يرفع الوجعا
 يروق الأبدان حيث ما لمعا (٣)

وقضى « ابن الساعاتي » فترة في مدينة أسيوط وأعجب بصفاء جوها وجمال طبيعتها
 فوصفها بقوله :

لله يومٌ في سَيوطٍ وليلةٍ
 بتنا وعمرُ الليل في غلوانه
 صرفُ الزمانِ بمثلها لا يقلطُ
 وله بنورِ البدرِ فرعُ أشمطُ

(١) المغرب في حلّ المغرب ، لابن سعيد المراكشي ، ج ١ ، ص ٢١٣ .

(٢) الولاية والقضاة للكندي ، ص ١٥٢ .

(٣) الطالع السعيد ، للأدقوي ، ص ٣٢ .

والظَّلُّ في تلك العصور كلُّواذٍ نظمُ يصافحه النُّسيمُ فيسقطُ
والطيرُ يقرأ والغديرُ صحيفَةً والرِّيحُ تكتبُ والغمامةُ تنقُطُ (١)

ويستطيع دارس الأدب المصرى فى العصرين الفاطمى والأيوبي أن يجمع قائمة واضحة لأسماء المدن المصرية المعروفة فى تلك العصور ، حيث ردها الشعراء والكتاب فى عديد من المناسبات .

وقد سجل كثير من الشعراء والأدباء الذين زاروا مصر فى هذه الفترة بعض أسماء المدن ، ولا سيما التى مروا بها أو أقاموا فيها ، وفى آثار أبى أمية بن عبد العزيز وابن سعيد المغربى ، وعمارة اليمنى ، والعماد الأصفهاني نماذج كثيرة لهذه الظاهرة .

(١) الطالع السعيد ، للأبنوى ، هامش ٦٩ .

الفصل الثانى

صور الحياة السياسية

يتميز أدب السياسة المصرى فى العصرين الفاطمى والأيوبي بثرائه كما وكيفا، وصدقه فى التعبير عن شخصية مصر السياسية، فقد سجل بدقة وتفصيل كثيرا من الأحداث السياسية على الصعيدين الخارجى والداخلى، واستمد ثراءه وغذاه من عناصر حيوية متعددة، فهذه المرحلة عامرة بالأحداث الضخام، ولأدبائها دور فى التاريخ زاخر بالحركة والحياة، فقد كان منهم الوزراء وأصفياء الحكام، ومن ثم أتبع لهم أن يشاهدوا كل ما يدور على مسرح الحياة من حولهم ويسجلوه فى أدبهم. فجاء أدبا خصبا فى دلالاته على الشخصية المصرية بحيث يمكننا أن نرى من خلاله قصص الصراع الداخلى فى ساحات القصور وبين دهاليزها والمعارك الخارجية فى ميادين القتال المتفرقة فى الصحارى أو المدن أو السواحل.

وتتعدد الجبهات الخارجية التى واجهتها مصر فى هذه الآونة فقد أدى اتساع سلطانها فى مستهل الحكم الفاطمى إلى إثارة الأحقاد ضدها وزاد من حدته أن حكامها رفعوا شعار الشيعة ينتقصون به أطراف الممتلكات السنية التابعة للخلفاء العباسيين وأتباعهم السنيين، ومع ذلك فقد كانت شخصية مصر العسكرية قادرة على ردع هذا التجمع يوم أن كان خلفاؤها الفاطميون أقوياء ولكن اتساع الأطراف أصبح عبئا ثقيلا على كاهل مصر، بعد أن ضعفت قوة الخلفاء الفاطميين وسقطت هيبتهم فى أعين الوزراء المتصارعين فتطاول عليها الأعداء وراحوا ينتقصون من أطرافها، فبعد أن كون الصليبيون إمارتهم الأولى فى "أنطاكية" اتجهوا صوب القدس وانتزعوه من سلطان مصر وتستشعر دولة الزنكيين الفتية فى الشام مصاب مصر، وتمرك أهمية موقعها وثراء موضعها وتخشى أن يسيل عليها لعاب الصليبيين ويمتلکوها فتستقر أقدامهم فى المنطقة بأسرها. وتتاح « لنور الدين » فرصة التدخل فى شئون مصر الداخلية بلجوه "شاور" إليه ليساعده فى الوصول إلى الوزارة.

وعندما انتهت هذه المهزلة وجمع صلاح الدين وحدتها الداخلية كان الخطر الخارجى قد استنحل أمره فأخذت مصر تواجه ذلك الخطر حتى كسرت حدته وأنهكت قوته على يد صلاح

الدين، وفي الوقت نفسه واجهت مصر الصلاحية مؤامرات داخلية وثورات متفرقة في القاهرة والصعيد كفتنة "مؤتمن الخلافة" وواقعة السودان ومؤامرة عمارة ورقاقه، لكنها فتن ومؤامرات هينة أمام القوة التي تتمتع بها الحكومة المصرية أن ذاك وبعد انحسار هذه الموجة من الفتن الداخلية استطاعت مصر أن تكسر حدة الصراع الخارجى.

وقد مهد لكثير من الأحداث وتنبأ بوقوعها وشارك فى صنعها أدب هذه المرحلة وعلى هذا يمكن تحديد مسرح الأدب السياسى فى مصر خلال هذه الفترة فى المجالين الخارجى والداخلى بالأبعاد التالية :

١- الصراع الوزارى .

٢- الاحتكاك المذهبى (بين الشيعة والسنة).

٣- العنوان الصليبي.

الصراع الوزاري

تعرضت مصر لأزمة اقتصادية حادة أخذت تتصاعد عاما بعد عام حتى أكل الإنسان لحم أخيه حيا، فلا غرو أن تعم القوضى، وأن تستشري الفتن والاضطرابات الداخلية التي بلغت أوج حدتها سنة ٤٦٤ هـ (١). وقد وصفها "ابن منجب الصيرفي" بقوله: "أما العزائم فقد همت، وأسباب الفساد قد بلغت الغاية وانتهت، والمراقبة قد نزلت وقلت، والمهابة قد تلاشت واضمحلت" (٢).

ولم يجد الخليفة المستنصر بدأ من الاستعانة بوزير حازم يقبض على زمام الأمور، ويدير حركة الحكم فاستقدم من الشام "بدر الجمالي" الذي أخذ الناس بالقسوة والعنف، ودانت له مقاليد الحكم، وأصبح للوزارة في عصره سلطة وهيبة جعلها أمل الطامحين، من ثم بدأ الصراع حولها وبدأ أبطال هذه المسرحيات يهاجمون الوزير فنجح بعضهم وتولى مكانه، وأخفق آخرون ولقوا حتفهم. وقد مثل دور البطولة - في الغالب - جماعة من الذين شاركوا في إدارة بعض الولايات أو المناصب في مصر، فإذا ما ساحت الفرصة لأحدهم انقض بجنوده على الوزير واحتل منصبه. وكانت عادة المصريين (الخلفاء الفاطميين) إذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز صاحب المنصب عن دفعه وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه، فإن قوتهم إنما كانت تكون بعسكر وزيرهم وهو الملقب عندهم بالسلطان، وما كانوا يرون المكاشفة، وأغراضهم مستتبة وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال (٣).

بين الوزيرين : عباس وابن السلار :

الصراع حول الحكم جبلة إنسانية لكنه بدا مرضا سياسيا ينهش في كيان مصر منذ استبد "أبو الفضل عباس بن أبي الفتوح" بالوزارة وقتل الوزير السابق "ابن سلار" وكان

(١) راجع الأزمة المستنصرية في :

أ - الكامل لابن الأثير .

ب - حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، د . راشد البراوي : طبعة أولى سنة ١٩٤٨ ، ص ٨١٨ وما بعدها .

(٢) الإشارة إلى من نال الوزاري ، أبو القاسم علي بن منجب الصيرفي : ص ٥٠ .

(٣) كتاب الروضتين ، لأبي شامة . جزء ١ ص ٣٣١ .

"عباس" من رجاله، لكنه تأمر عليه وقتله عند مدينة "بلييس" ثم عاد عباس ليمثل نور الأتراك السلاجقة مع الخلفاء العباسيين في قتلهم وسحلهم، واتخذ مسرحه القصر الفاطمي بالقاهرة فبسر مقتل الخليفة الظافر خارج القصر سنة ٥٤٩ هـ. ثم قتل أخويه يوسف وجبريل بتهمة إخفائهما الخليفة وقتله، وجعل على كرسی الخلافة طفلاً من أبناء الظافر (١).

وكانت عيون الأدب ترصد هذه الحركات وتستنكرها "فابن أبي أسعد" يفضح صنع عباس قائلاً :

وأنفقَ من أنعامِهِم في هلاكِهِم وأظهرَ ما قد كان عنه يُنافِقُ
ومدُّ يداً هم طوؤوها إليهم وحلت بأهلِ القصرِ منه البوائِقُ
سقى ربُّه كأسَ المنايا، وما انقضى له الشهرُ إلا وهو للكأسِ ذائقُ (٢)

عباس وطلّاعِ بنِ رزيك :

ويتألم الشعراء لهذا الحدث أسفا يذهب النوم عن العين لما حل في ساحات القصر :
قلو عاينت عينك بالقصرِ يومهم ومصرَعُهُم لم تكتحل برقاد (٣)
ولا يكفي الألم والأسف بل لابد من المشاركة في صنع الأحداث وتشكيلها، فيتجه الشعر إلى مخاطبة من يتوسم فيهم المقدرة على الأخذ بالثأر.

وكانت أسرة "بني رزيك" وعلى رأسها الصالح طلائع قادرة على الانتقام، فخاطبها الشعراء وصوروا لها فداحة الأمر وحثوها على الثأر من عباس وتخليص البلاد من قسوته.
فأين بنو رزيك عنها ونصرهم وما لهم من منعه وذياد
فمزق جموع المارقين، فأبناها بقايا زروع أذنت بحصار (٤)

(١) الفاطميون في مصر ، د . حسن إبراهيم حسن ، ص ٢٩٦ .

(٢) كتاب الروضتين ، جزء ١ ، ص ٢٤٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٦١ والبيت من قصيدة طويلة بحث بها القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن الحباب إلى الصالح طلائع بن رزيك ، وكان الصالح والياً على قوص وما جاورها من بلاد الصعيد الأعلى .
انظر النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة لابن تغرى بردى ، ج ٦ ص ٢٩١ .

(٤) الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٦١ .

ويقتصر الشعر في تحقيق أمانيه ويستجيب "طلّاع" لندائه ويهاجم عباسا فيفر من وجهه ضاريا في صحراء سيناء حيث تلقاه منيته، وكان "الشريف القاضي سناء الملك أبو البركات" والد الشاعر "هبة الله بن سناء الملك" معاصرا تلك الأحداث وقدم لنا صورة لفرار عباس وقتله . فقال مخاطبا "ابن رزيك" :

لئن كنت قد نجيت عباس من ظبا	فرنجة لما لم يجد عنك مستغنى
وأنقذته من أسره وهو ذاهل	يرد عن الأهوال في المأزق الطرفا
فقد سقته إذ فرمك إلى مدى	تمد مداه نحو مقلته الحنفا
وما فرم من وقع الأسنّة صاغرا	وحدك إلا حين لم ير مستغنى
وملّ الطعان المر للملك الذي	يراه حيا عندما يهب الألفا (١)

ويتولى "طلّاع بن رزيك" الوزارة المصرية، ويتهلل وجه الشعر ويرى الجليس الصالح أن وزارة عباس كانت نجسة، وكانت رداء مستعارا . ولا بد أن ترد العارية يوما من الأيام وأن الوزارة في يديه كامرأة حسناء مع رجل غير كفء، فلا بد أن يشير عليه نحو الرأي والمشورة بطلاقها .

أعدت إلى جسم الوزارة روحها	وما كان يرجى بعثها ونشورها
أقامت زمانا عند غيرك طامثا	فهذا الأوان قرؤها وطهورها
من العدل أن يحيا بها مستحقها	ويخلعها مربودة مستعيرها
إذا ملك الحسنة من ليس كفتها	أشار عليه بالطلاق مشيرها (٢)
ونجح "ابن رزيك" واستطاع بقوة السيف أن يقهر عباس في أوج جيروته وطغيانه :	
لكم بنى رزيك، لازال ظلمكم	مواطن، سكب الموت فيها مواطن
سلطتم على عباس بيض صوارم	قهرتم بها سلطانها وهو قاهر (٣)

(١) الخريدة ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٢) كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٦٢ .

(٣) كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٤ .

وقد واجه الصالح أطماع الخارجين وصددهم عن بلوغ غايتهم، ففي الاسكندرية ثار (طرخان) وتقدم بجيوشه فأرسل الصالح لقتاله غلامه "وردا" وأخاه "شمس الخلافة" والتقيا بطرخان عند مدينة البحيرة فبددا شمله وفرقا جيشه ما بين قتيل وأسير :

لقد طمحت بطرخان أماناً له ولثقله قـيها بـواراً
 وحاول خـطةً فيـها شـماسُ على أمثاله وبها تفارُ
 هل الحسبُ الفتيُّ بمسـتقلٍ إذا ما غره الحسبُ النضارُ
 أتتك بخائنٍ قدماه سعياً كما يسعى إلى الأسدِ الحمارُ
 وشانُ قريـنه لما أتاه كما قد شأنُ أسرتـه قـدارُ (١)

وكما فشل طرخان في ثورته على بنى رزيك فشل بهرام الغزى، فقد ثار بهرام وتوجه يريد الصعيد، فأتركه العسكر، وقتل أخوه وجماعة من الغزى.

وقد وصف عمارة هذه الحادثة وصور انتصار بنى رزيك على بهرام وقومه :

لما تمرد بهرام وأسرته جهلاً وداموا قراع النبع بالغرب
 صدعت بالناصر المحيي زجاجتهم والزعاجه صدع غير منشعب
 أسرى إليهم ولو أسرى إلى القلك الأعلى لخافت قلوب الأنجم الشهب
 في ليلة قدحت زرق النصال بها ناراً تشب بأطراف القنا الأشب
 ظنوا الشجاعة تنجيهم فقارعهم أبو شجاع قريع المجد والحسب (٢)

مقتل "الصالح طلائع بن رزيك" وتولية ابنه الوزارة :

وتعد الدائرة على الصالح كما دارت على غيره من وزراء العصر ولم يمنعه من ذلك مصاهرة الخليفة العاضد، بل كانت هذه المصاهرة مثار حقد نساء القصر، وتولت عمه العاضد (٢) تدبير المؤامرات ضد الوزير طلائع حتى تتخلص من نفوذه فأحكمت حيلتها ودفعت

(١) الخريدة ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

(٢) ديوان عمارة اليمنى ، ص ١٦٥ .

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٧٤

الأموال لجماعة من السودان، قاموا بتنفيذ الخطة، فبينما الصالح يفادر القصر في التاسع عشر من رمضان سنة ٥٥٦ هـ بعد اجتماعه بالخليفة فوجيء بجماعة تخرج عليه من مخابنها في دهليز القصر وتعاورته سيوفها فتعثر في أنياله وضربه أحدهم بالسيف في رقبته ضربة مؤثرة توفي على إثرها بعد ساعات (١).

وقد روى عمارة اليمنى مشهداً من هذه الوقائع في حديثه عن "محمد بن شمس الخلافة" الذي كان مع "الصالح" ساعة اغتياله :

وكان في الوفاء لبني رزيك نصيرى الموالاتة والعقيدة وحضر مع الصالح يوم قاعة الذهب فقاتل عنه أشد القتال ولم يزل يضرب بسيفه حتى انقطع من وسطه نصفين فلما لم يبق معه سيف ألقى بنفسه على الصالح وهو طريح في دهليز السرداب ووقاه بنفسه فلم تزل السيوف تنحره حتى قام الصالح وتكاثر الناس وذكرته في قصيدة رثيت بها الصالح يوم نقل تابوته إلى القرافة منها :

أوقى أبو حسنٍ بعهدكِ عندما	خذلت يميناً أختها ويساراً
لاتسالا إلا مضارب سيفه	فلقد تزيد وتنقص الأخبار
حتى إذا انقطع الحسام بكفه	وانفل منه مضرب وغرار
ألقى عليك وقاية لك نفسه	لما انتحنتك صوارم وشفار
إن لم يذق كأس الردى فيقلبه	من خمرها أسفاً عليك خمار
هي وقفه رزق المكرم حمدها	وعلى رجال لومها والعار (٢)

وكان عمارة اليمنى كان يتتبع بموت الصالح ومال الوزارة إلى ابنه رزيك، حينما أنشده قبل وفاة والده بثلاثة أيام :

أبوك الذي تسطو الليالى بحدّه	وأنت يمين إن سَطَا وشمال
لرتبته العظمى وإن طال عمره	إليك مصير واجب ومال (٣)

(١) كتاب الروستين، ج ١، ص ٣١١.

(٢) ديوان عمارة اليمنى، ص ١٤٥.

(٣) عمارة اليمنى، ص ٤٩.

وقبل أن يلفظ الصالح أنفاسه الأخيرة أوصى بالوزارة من بعده لولده "رزيك" ومضى
 عمارة اليمنى يهنئ رزيك بمنصب الوزارة ويقارن بين عهدين : عهد كان فيه عباس وابنه يملكان
 أمرها والمجد نافر منهما، وعهد تولى الصالح أمرها ثم أورثها ولده رزيك من بعده وكلاهما أية
 في الفضل والصلاح، فاستبدلت الوزارة عصر الصلاح بعصر الفجور.

الصالحُ الهادي له والدُ	لقد تساوى النجرُ والتاجرُ
تبارك المعطي لكم هذه	الرتبة فهو الملك القادرُ
رداؤهم فوقكم لائقُ	وهو على غيركم نافرُ
قد كان عباسُ بها وابنه	والمجدُ فيها مُكرهٌ صاغرُ
ولم يزل فوقهما سترها	مُرخسٌ إلى أن قتل الظافرُ
فأصبحتُ أستاره عنهما	مكشوفةً إذ غضب السائرُ
تعوضتُ عن فاجرٍ صالحاً	لا يستوى الصالحُ والفاجرُ (١)

بين الوزيرين رزيك وشاور :

وكما اعتلى الصالح منصب الوزارة على جثث القتلى ودعها وهو يتخبط في دمانه، فلا بد
 أن يستمر هذا النهر المتدفق من الدماء يحوط بركب الوزارة. فقد جد "رزيك" في طلب نثار أبيه
 من المنبرين والمنغنين، وإن كان عمارة شاعرهم لا يرى تكافؤاً بين الجناية والقصاص ويصب
 لعناته على القاتلين ويتهمهم بالحق والجهل ويبشرهم سوء العاقبة :

غضبَ الإله على رجالٍ أقدموا	جهلاً عليه وأخرين أشاروا
لاتعجبن لقدارِ ناقةِ صالح	فلكلِّ عصرٍ صالحٌ وقدارُ
أحلت دارَ كرامةٍ لا تنقضي	أبدأ وحل بقائليك بوأر
وقع القصاصُ بهم وليسوا مقتنعا	يرضى، وأين من السماء غبارُ
ضأقت بهم سمعُ الفجاج وربما	نام الولي ولا ينامُ الثارُ (٢)

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤٥ .

(٢) عمارة اليمنى ٥ ص ٦٤ (الديوان)

ولكن أمير الجيوش شاور "يثور على رزيك" ويتنقم بجيوشه نحو الغربية ويخرج رزيك للقائه وتحد الدائرة عليه ويتولى الوزارة "شاور" من بعده. وقد شاهد عمارة اليمنى رأس رزيك في الوزارة، وحدثنا عما رأى : "نزلت قاعة السر من دار الوزارة وفيها طي بن شاور وخرغام وجماعة من الأمراء مثل عز الزمان ومرتفع الظهير ورأس رزيك بن الصالح بين أيديهم في طست فما هو إلا أن لمحتة عيني وردت كمي على وجهي ورجعت على عقبي وما ملأت عيني من صورة الرأس وما من هؤلاء الجماعة الذين كان الرأس بين أيديهم إلا من مات قتيلًا وقطعت رأسه عن جسده، فأمر طي من رديني. فقلت : والله ما أدخل حتى تغيب الرأس عن عيني. فرفع الطست وقال لي خرغام لم رجعت ؟ .. لو ظفر رزيك بأمر الجيوش أو بنا ما أبقى طينا.

قلت : لاخير كفى شيء يؤول الأمر بصاحبه من الدست إلى الطست، ثم خرجت وقتت :

أعزُّ عليُّ أبا شجاع أن أرى ذاك الجبين مضرجاً بدمائه
ما قلبته سوى رجالاً قلبوا أيديهم من قبل في نعمائه (١)

ونرى الشعراء يصورون مقتل رزيك وتولى شاور الوزارة بصور مختلفة لاشك أنها ترجع إلى قوة أو ضعف علاقاتهم الشخصية بالوزراء. فعمارة اليمنى يوثى ببنى رزيك ويهنيء شاوراً معتترا له عن الوفاء لهم :

وما قصدت بتعظيمي سواك سوى تعظيم شائك فاعزرتني ولا تلم
ولو شكرت ليااليهم محافظتة لعهدِها لم يكن بالعهد من قديم
ولو فتحت فمي يوماً بنمهم لم يرخص فضلك إلا أن يسد فمي
والله يامرُ بالإحسان عارفةً منه وينهى عن الفحشاء في الكلم (٢)

ولكن الشاعر "ابن النحاس" يطالب بالقضاء على من بقى من "بنى رزيك" وعدم قبول عزهم جزاء وفاقاً لما فعلوه مع غيرهم أيام سطوتهم وملكهم :

هم أسروا كمال الدين سبجاً فهام في يديه اليوم أمسرى

(١) عمارة اليمنى ٥ ص ٦٤ (الديوان).

(٢) المرجع السابق، ص ٦٦.

(٣) ديوان عمارة اليمنى، ص ٧٠.

فإن جارك واعتذروا بعذرٍ فلاتقبلُ من الطاغين عذرا (١)

بين شاور وضرغام :

وعلى الرغم مما كان يتمتع به "شاور" من الدهاء والحيلة فإن لعنة الوزارة لا محالة تصيبه، فقد ثار "ضرغام" نائب الباب وفرشاور محاولاً أن يتحدى لعنتها، وأفلح في تحديه حيناً من الدهر، عندما لجأ إلى الشام سنة ٥٥٨ هـ وطلب من سلطانها أن يعينه في الوصول إلى منصب الوزارة. وعهد له بتقديم معونات وتسهيلات في مصر من شأنها أن تشد عضد "نور الدين" ضد أعدائه الصليبيين فأرسل معه جيشاً بقيادة "أسد الدين شيركوه" مكنه من الوزارة. وفرّ ضرغام متخفياً. ولكن أحد الجنود تعرف عليه وقطع رأسه وأرسل بها إلى "أسد الدين شيركوه" ثم طافوا برأسه. وكان عمارة يسكن شط الخليج بالقاهرة وشاهد رأس "ضرغام" فوصف لعنة الوزارة على أصحابها مرتجلاً :

أرى حنكَ الوزارةِ صارَ سيفاً يحدُّ يحدّةَ صيدِ الرُقَابِ
كلُّك راندُ البلوى، وإلا بشيرُ بالنيّةِ والمصابِ (٢)

وعاد "شاور" ليعتلى عرشها من جديد بعد غيبة دامت تسعة أشهر بالتمام أطلق عليها الشاعر "عمارة اليمنى" (مدة الحمل) وراح من جديد يهتف "شاور" وأبناءه بانتصارهم وعودتهم إلى الحكم ملحا على الحقيقة المرة، وهي أن الوزارة في ذلك العصر كانت مقبرة الوزراء، وأن أحداً لم يتبسم له بعد تنكرها غير "شاور" وأهله.

في مُدّةِ الحملِ أدرَكْتُمُ جنابَهُمْ على عُلاكِمِ بأخذِ الملكِ والثارِ
إن الوزارة لو خُلِيَتْها رجعتُ إليك طائفة من غيرِ إجبارِ
وماعلمنا وزيراً قبلَ نولتكم ردتُ له وجّه عُرفٍ بعد إنكارِ (١)

وغصت أيام شاور بالفتن والثورات، فلم يواجه عداء ضرغام وحده، أو تطلعات القوى الخارجية فحسب، بل قامت ثورة عارمة شنها "يحيى بن الخياط" الذي لاذ بالصعيد. وكان

(١) الخريدة، ج ٢، ص ١٢٢.

(٢) كتاب الروضتين، ج ١، ص ٣٣٢.

"ابن الخياط" من رجال النواة الفاطمية منذ زمن الصالح بن رزيق، ويذهب صاحب الروضتين إلى القول: بأن "ابن الخياط" ساعد الفرنجة في القنوم إلى مصر قبيل حملة شيركوه الثالثة سنة ٥٦٤ هـ، نكاية في شاور وانتقاما منه. (٢)

وقد أفاض عمارة في وصف المعارك التي دارت وسجلت انتصار شاور على خصمه في العديد من المعارك التي شهدتها بلاد الصعيد في "أشنا، ودهروط" وغيرهما، كما أشاد ببطولة شجاع بن شاور الذي قاد هذه المعارك:

جلبت إليه عُنْبَة كَامِلِيَة	بأمثالهم تُبْنَى المعالي وتُهْنَمُ
صَلَمَتْ بِهَا يحيى وقد كاد أمره	وتدبيره الثاني يتم ويبرم
ولم يقدم الفسطاط إلا وعزمه	يقخر رجلاً خوفاً ويقدم
وما جهلت أيامُ إشنأ وطيند	وساحلِ دهروط بأنك ضيفم
وقفت بها تحمى فوارسك التي	كفيت أذاهم حين دافعت عنهم
وأقيت فيها ياشجاع بن شاور	طرازاً على كم الشجاعة يرقم (٣)

وإذا كان أدب هذه الفترة صور لعنة الوزارة على أصحابها وأفاض في ذلك كثيرا، فإنه لم يصور لعنتها على مصر والمصريين الذين دفعوا ثمن تلك المهاترات، وأصابتهم نكبات في الأموال والأنفس والثمرات. يؤكد هذه الحقيقة ما ذكره "أبو شامة" من أن "شاور" تعهد للفرنج بدفع ألف دينار مصرية عن كل مرحلة يقطعونها من عسقلان إلى فاقوس لمساعدته في استقراره بمنصب الوزارة وقد دفع لهم سبعة وعشرين ألف دينار (٤). وما كان أحوج مصر إلى كل درهم من هذه الأموال تشدد به أزرها في مواجهة الزحف الصليبي ومقاومة الأزمات الاقتصادية.

ويصف عمارة اليمنى مقدار ما دفعه "شاور" من الأموال في سبيل وصوله واستقراره بالوزارة فيخطبه قائلا:

-
- (١) ديوان عمارة اليمنى ص ٢٥٧ .
(٢) كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .
(٣) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .
(٤) كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢١ .

أبليتَ فيها بما سيرتَ من عددٍ ومن عديدٍ الى الأعداءِ ينثالُ

لولا بيوتُ من الأموالِ جُدَّتْ بها على عساكرِها لم يستقمَ حالُ (١)

وطبيعى أن تنهك الصراعات قوة الجيش المصرى ويقف شاور عاجزا عن حماية مصر من أعدائها . ولعل عمارة يفسر ذلك العجز بقوله :

وما مضى بك يومٌ ليس فيه على أيامِ ضرغامٍ تبييرُ وأعمالُ (٢)

وقد اشتط شاور فى استخدام العنف، فعندما عاد من حصار الإسكندرية أكثر من سقك النماء بغير حق، وكان يأمر بضرب الرقاب بين يديه فى قاعدة البستان من دار الوزارة ثم يسحب القتلى خارج الدار .

وقد كتب عمارة قصيدة فى ذلك المعنى ناشد فيها "شاور" أن يضع السيف وأن يلجأ إلى العفو والتسامح :

ألا إن حدَّ السيفِ لم يبقِ خاطراً من الناسِ إلا حائراً يتبردُ

ذعرت الورى حتى لقد خاف مصلحُ على نفسه أضعافَ ماخافَ مفسدُ

فاغمدِ شفارَ المشرفى وعُدْ بنا إلى عادةِ الإحسانِ وهى التعمدُ

فإن يردق الماضياتِ وصوتها رواعدُ منهنَّ الفرائصُ ترعدُ

وإن صليلَ السيفِ أفحشُ نعمةٍ تظلُّ تفنى فى الطلى وتغرُدُ

تجاوزِ والأقالقِ خيفةً ينوبُ وماءُ النيلِ لانشكِ يجمدُ (٣)

وفى موقف آخر يصور عمارة ضراوة القتال الذى دار بين الخصمين "شاور" و"ضرغام" ومن ساندتهما :

وتتوفى بالجيش ضاق مجالها فالذئبُ فيها والقنا لا يعسلُ

(١) ديوان عمارة اليمنى

(٢) المرجع . السابق ص ٢١٩

(٣) ديوان عمارة ، ص ٨٧ .

غادرت يومَ عدّاك فيها أيّوماً وتركتهم والليلُ فيها أليلُ
ورميتهم بالجُردِ وهي أجدلُ منقضةٌ من فوقهم أو جندلُ
وتوهّموا لمعَ الحديدِ ولونَه روضاً بوارقُه تجودُ وتهطلُ
فإذا اخضرارِ الروضِ درعُ سابلُ والغصنُ رمحُ والمهندُ جدولُ (١)

مقتل شاور وتولية أسد الدين شيركوه :

ولكن الأحداث تتوالى لتؤنن بقنوم مرحلة جديدة تقف عندها مهازل هذا الصراع والتمزق الداخلي. فقد ظل "شاور" يحاور ويناور حتى انتهى به المطاف قتيلاً بأيدي الأيوبيين بعد أن قدم "أسد الدين شيركوه" وبعث إليه الخليفة الفاطمي بخلع الوزارة إثر مقتل شاور. وراح العماد يهنيء مصر بصفحة جديدة.

هنيئاً لمصرَ حوزَ يوسفَ ملكها بأمرٍ من الرحمن قد كان موقوتاً
وما كان فيها قتلُ يوسفَ شاوراً يماثلُ إلا قتلَ داودَ جالوتاً
وقلتُ لقلبي : أبشرَ اليومَ بالمنى فقد نلت ما أملت، بل حُزّت ماشيتاً (٢)

موقف الشعب المصري من الصراع الوزاري :

وقد يطرح سؤال نفسه من خلال هذه الأحداث : لماذا لم يقم الشعب المصري بثورة تضع حدا لهذه المهازل التي تنور على أرضه ويكتوى بناراها ؟

ونعود إلى ماحللنا به شخصية مصر السياسية فيما سبق لنجد إجابة لهذا السؤال :

إن الاستقرار والهدوء هما أساس الحياة المصرية، وما حل بمصر من نكبة اقتصادية ومجاعة فاحشة في عصر المستنصر ليس له سبب غير اختلال الأوضاع الداخلية كما قرر ذلك الدكتور راشد البراوي في كتابه "حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين".

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢١.

(٢) كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٥٥ .

ومن جهة أخرى لم تعتبر مصر هؤلاء الوزراء المتصارعين أجنبيا عنها تماما فهم مصريون قدموا إليها في الأصل متمصرين يعملون في خدمتها وإن كانوا من أجناس غير مصرية لكنهم تمصروا كغيرهم من الأجناس المختلفة، فتقبلت مصر تصارعهم على مضض وكره كما يقبل أى شعب من شعوب عالمنا المعاصر حركات الانقلاب التى تحدث فى كثير من البلاد على كره واستنكار . وقد تذرع هؤلاء الوزراء بحب مصر وحرصهم على ضبط أمورها وأكد شعراؤهم هذه المعانى فى مديحهم فكيف تثور مصر على من يزعمون حب الخير لها ولو كان ذلك ادعاء منهم ؟ .. إن وجه التحدى غير سافر فى هذه المشاهدات، والشخصية المصرية وثيدة الخطى فى ثوراتها ما لم تمس الإهانة جوهر عقائدها وأصيل موروثها لأنها غير نزاعة إلى التمرد والثورات. وقد كان المتخاصمون مسلمين أو هكذا كانوا يعرفون. فعلى من تثور مصر الإسلامية وهى تواجه خطرا صليبيا يطرق الأبواب ويحتاج الى جمع الشتات ورأب الصدع ؟

ومن هنا وقف الشعب المصرى موقفا أقرب إلى السلبية، وقد نجح فى موقفه فإن الأحداث قد أتت بالقائد الذى التفت مصر حوله وقامت بثوراتها الحقيقية لتبسط بالفول الصليبي الذى أزهب المنطقة سنوات طوال، وهذا ما سنكتشف عنه طبيعة الثورة المصرية إبان الحروب الصليبية.

الاحتكاك المذهبى بين الشيعة والسنة

طبيعة الاحتكاك :

أوتر وصف التحول المذهبى فى مصر بالاحتكاك، وإن كان يحلو لبعض أدباء تلك العصور أن يصوره صراعا مريرا، كما يفسرون بدوافع التحول التى مرت بها مصر وما ترتب عليه من آثار بنزعة عصبية مذهبية أو عنصرية.

فالعماد الأصفهانى، وهو سنى متعصب يفسر تدخل نور الدين فى شئون مصر بدوافع العصبية المذهبية فهو يخاطب شيركوه قائلا :

أنتَ مَنْ نازلَ الدُّعْيَيْنِ ففى مَصرَ لنصرَ الإمامِ فى بغداد
وبلادِ الإسلامِ أنتَ أنتَ من الشُّركِ أيُّما إنقاذِ (١)

فهل كانت أطماع "نور الدين" فى مصر أطماعا مذهبية كما يذهب العماد ؟ وإذا كان "نور الدين" وجنده وقادتهم من بنى أيوب ينطلقون من دافع العصبية المذهبية فهل رحبت بهم مصر وعلى رأسها الخليفة الشيعى العاضد لهذا الغرض ؟

ومن منطلق العنصرية - أيضا - يستقبل الشاعر العرقلة "أسد الدين شيركوه" عند عودته إلى الشام بعد حملته الثانية على مصر سنة ٥٦٢ هـ ليثيرها عصبية ذات طابع شعوبى يفضل فيها الجنس التركى على الجنس العربى.

أقولُ والأتراكُ قد أزمعتُ
مصرَ إلى حربِ الأعرابِ
ربُّ ، كما ملكَها يوسفُ الصِّديقُ من أولادِ يعقوبِ
يملكُها فى عصرنا يوسفُ الصادقُ من أولادِ أيوبِ
من لم يزلْ ضرابَ هامِ العداِ حقاً وضرابَ العراقيبِ (٢)

لم يهتد هذا الشاعران إلى حقيقة الموقف، بل عكسا ما فى نفسيهما من روح العصبية فى المذهب أو الجنس، ربما عن إيمان ذاتى بها، أو تقليد للموروث من التراث الألبى المنحدر من عصور الأزهار والذى مثلت فيه الشعوبية دوراً كبيراً، وربما عن تأثير البيئة التى شبا وترعرعا فيها فكلاهما لم يكن شاعراً مصرياً، ولم يكن العماد قد اتصل بعد بالبيئة المصرية اتصالاً يمكنه من فهمها ومعرفة شخصيتها. ولانجد هذا التعصب واضحاً لدى أنباء مصر الذين امتزجوا بأهلها وتمصروا فيها. فعمارة اليمنى وهو الشاعر المقرب للفاطميين لم يكن شيعياً

(١) كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٨٤ .

(٢) كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٦٤ .

وماضره ذلك من أن ينال حظه في ظل سلطانهم (١)

والقاضي الفاضل الذي كتب للفاطميين والأيوبيين لم يكن شديد التحمس في شعره أو نثره لنزعة مذهبية أو عصبية كالتى أثارها العماد لو غيره.

وقبل أن يبدأ تدخل "نور الدين" في شئون مصر، وقفت كل من مصر الشيعية والشام عنوها الصليبي بل راحت مصر الشيعية تستحث الشام على خوض المعارك المشتركة فالوزير الشاعر الفاطمي "طلّح بن رزيك" يذف البشرى إلى مؤيد الدولة "أسامة بن منقذ" بانتصار الغزاة المصريين ويستحث جنود "نور الدين" أن يغيروا على العدو حتى تستطيع القوتان معا تحطيم شوكته.

سارت سرأيانا لقصد الشام تعتسف الرمالا
هذا، وفي تلّ العجا ل ملان بالقلى التلالا
إذا مرّ مرّى ليس يلوى نحو رفقتيه اشتغالا
فلو أن نور الدين يجعل فقلنا فيهم مثالا
ويسير الأجناد جهراً، كى ينارلهم نزالا
ووفى لنا، ولاهل دولته، بما قد كان قال
لأيت لإل فرنج طرا فى معاقبها اعتقالا
وتجهزوا للسّير نحو الغرب، أو قصدوا الشمالا
وإذا أبى إلا اطراً حا للنصيحية واعتزالا
عُنا بتسليم الامو ر لحكم خالقنا تعالى (٢)

(١) يحكى عمارة اليمنى عن موقف تعرض له حين سمع بمحضر الوزير الصالح طلّح بن رزيك بعض الجالسين يخوضون فى ذكر السلف فاعتزل مجلهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وقال للصالح لولا أبو بكر وعمر لم يبق الإسلام علينا ولا عليكم وإنه ما من مسلم إلا ومحبتة واجبة عليه ثم قرأ : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه » فضحك الصالح « انظر النكت المصرية . عمارة اليمنى ص ٤٥ .

(٢) كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

فيجيبه أسامة شاكرا ومعلمنا، وداعيا إلى مزيد من التعاون مع "نور الدين" الذي صمم على حماية بلاد الشام ومنازلة أعدائها الصليبيين :

يا أشرف الوزراء أخلاقاً، وأكرمهم فعالاً
نُبّهت عبداً طالما نُبّهت قهدراً وحالاً
وعتبتَه ، فأنلتَه فخرأً، وحمدأً ، لن ينالاً
فأسلم لنا حشئ نرى لك قسى بنسى الدنيا مثلاً
واشدّد يدك بؤد تو ر السدين والفق به الرجالاً (١)

وتوالى كتابات طلائع بن رزيق إلى مؤيد الدولة أسامة بن منقذ، يستحثه على قتال المشركين ويؤكد على مواصلة القتال ورفض صلح الأعداء :

وقد كاتبوا في الصلح، لكن جوابهم
بحضرتنا ماتكتب الخط لا الخط
سطور خيول لا تقب ديارهم
لها بالمواضى والقنا الشكل والنقط
فقولوا لنور الدين : ليس لخائف ال
جراحات إلا الكى فى الطب والبط
وحسب أصول الداء أولى بعاقل
لييب إذا استولى على المنيف الخلط (٢)

لقد كان التعاون الشيعى السنى واضحاً فى موقف مصر من العدو الصليبي المشترك ولكن التاريخ كما يلاحظ الدكتور محمد كامل حسين - أغفل هذه الناحية (٣). وفى أدب المراسلات الذى عرضت طرفاً منه ما يؤيد ذلك الرأى ويدعمه.

حملات شيركوه على مصر :

ولما أخذ الاحتكاك السنى الشيعى صورة تدخل فى شئون مصر كشف عن حقيقة الشخصية المصرية وموقفها من هذا الاحتكاك. فحملة "أسد الدين شيركوه" الأولى كانت استجابة لطلب الوزير المصرى المخلوع الذى لم يتخذ من إغراء "نور الدين" بتحويل مصر سنوية سبيلاً إلى تحقيق مطلبه، وإنما ذكره بالخطر الدايم الذى يترصد مصر المسلمة، وما يمكن أن

(١) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٤ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٨ .

(٣) راجع فكرة الدكتور محمد كامل حسين مفصلة فى كتابه « فى أدب مصر الفاطمية » ص ٢٦٤ .

يجلبه سوء أحوالها الداخلية من عواقب سيئة. ومن هذه الزاوية أعد جنوده وسيرها إلى مصر، وما كان أحوجه إليها يشن بها غارات على الحصون الصليبية المتاخمة لكنه اعتبر هذه الحملة جزءاً من قتال الصليبيين لا من قتال الشيعة أو المصريين. وما دار من مراسلات بين أسد الدين شيركوه والوزير المصري شاور يؤيد ذلك (١).

وعندما تحرك شيركوه وجنوده للمرة الثانية إلى مصر كانت تحركه دوافع نصره للمسلمين بامتلاك مصر والأخذ بيدها.

بِعَلِّكَ مِصْرَ وَنِصْرَ الْمُؤْمِنِينَ غَدَا تَحْطَى النُّفُوسُ بِتَأْنِيْسٍ وَتَطْيِيْبِ
وَيَسْتَقْرُّ بِمِصْرَ يُوْسُفُ وَإِيَّاهُ تَقْرُبُ بَعْدَ التَّنَائِيْ عَيْنُ يَعْقُوْبِ
وَوَلَّتْ قِيَّ يُوْسُفُ فِيهَا بِإِخْوَتِهِ وَاللَّهُ يَجْمَعُهُمْ مِنْ غَيْرِ تَشْرِيْبِ (٢)

ولما وصل شيركوه إلى مصر وخيم بالجيزة لقي مساندة من المصريين وانضم إلى جنده قوم يقال لهم الأشراف الجعفريون والصلحيون والقرشيون لانصرة السنين على الشيعة بل للدفاع عن مصر والمسلمين. ولقد كان هذا الإحساس ماثلاً أمام "شيركوه" كما تبديه رسالة بعث بها إلى "شاور" يقول فيها: أنا أحلف لك بالله الذي لا إله إلا هو، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه، أنني أقيم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبداً، ولا أمكن أحداً من التعرض لها ومن عارضك فيها كنت معك إلباً عليه، وما أوْمَل منك إلا نصر الإسلام فقط: وهو أن العرد قد حصل بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة، وخلصه عسير، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه، وننتهز فيه الفرصة التي قد أمكنت: والغنيمة التي كتبت، فنتأصل شأفته، ونخمد ثأرته، وما أظن أن يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً" (٣).

ومرة أخرى يتعاون الشعب السكندري مع جند شيركوه معبراً عن الطابع الإسلامي لا المذهبي أو التعصب العقائدي، فعندما استنجد "شيركوه" بأهل الإسكندرية قاموا معه وأمروا عليهم "نجم الدين بن المصالح" ولما سار شيركوه إلى الصعيد قدموا له معونات مالية كبيرة.

(١) كتاب الروضتين ج ١، ص ٤٢٢.

(٢) كتاب الروضتين، ج ١، ص ٢٩٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٢٥.

ووقفت الإسكندرية صلبة مع صلاح الدين ولم يخرج منها حتى استحلف شاور ألا يتعرض لأحد من أهلها بسوء. ومع ذلك فإن العماد الأصفهاني يفصل أحداث هذه الحملة في أكثر من قصيدة، ولم يشر إلى تعاون المصريين مع شيركوه. بل كان يردد دائما نغمة انتصار السنية، وانهزام الشيعة ويبشر بزوالها من مصر .

فهو يخاطب "شيركوه" بقوله :

من دم الغادرين غادرت بالأمس صعيد الصعيد وهو غديرُ
ولكل مما تطاولت فيهمم أمل قاصر وعمر قصيرُ
لاذ بالنيل شاور مثل فرعو ن، فذل اللاجى وعز العبودُ
شارك المشركين بغيا، وقد ما شاركها قريظة والنضيرُ
والذى يدعى الإمامة بالقفا هرة ارتعاع أنه مقهورُ
وحميت الإسكندرية عنهم ورحى حريمهم عليهم تدورُ
حاصروها وما الذى بان من ذبك عنها وحفظها محصورُ
ولكم عودة إلى مصر النصر على ذكرها تمر العصورُ
فاستربوا حسق الإمامة ممن خان فيها فإنه مستعيرُ (١)

وقد جاء "شيركوه" ومع "صلاح الدين" للمرة الثالثة إلى مصر سنة ٥٦٤ هـ بعد استتصاخ القصر الفاطمى ونداء الوزير المصرى وضجر الناس كافة من سوء ما يعانون فى الصليبيين على أبواب القاهرة ولهم فيها حامية عسكرية، والخليفة عاجز عن ردع أى خطر على البلاد. وتطلعت مصر إلى مسلمى الشام متجاوزة عن كل الفوارق المتعلقة بالمذهب الدينى أو العرق الجنى وعن كل ما ينم على الروح الشعبوية، واستقبلت "شيركوه" فرحة مستبشرة يقول العماد الأصفهاني : "عجل شاور ملك الفرنج بعائة ألف دينار حيلة وخداعا وإرغاما له وإطامعا، ووصل بكتبه إلى "نور الدين" مستصرخا مستصرا، وبما ناب الإسلام من الكفر مخبرا، وسير

(١) كتاب الروضتين ج ١، ص ٣٧٢، ٣٧٣ .

الكتب مسودة بمدادها . كاسية لباس حدادها ، فى طيها نواتب مجزوة ، وعصائب محروزة أظن أنها شعور أهل القصر ، للإشعار بما عراهم من بلية الحصر . وأرسله تباعاً ، وأردف بها نجابين سراعاً ، وأقام منتظراً ، ودام متجبراً ، وعامل الفرنجة بالمطال ينقدم فى كل حين مالا ، ويطلب منهم إمهالا . وما زال يعطيهم ويستملهم حتى أتى الفوث بعساكر نور الدين رحمه الله تعالى (١) .

وكانت جموع الصليبيين قد نخلت مدينة "بلبيس" وقتلت وأسرت ، ولما قاربت مصر أمر "شاور" بإحراقها وظلت النار بها أربعة وخمسين يوماً مشتعلة ، ولئن حال حريق مصر نون استيلاء الصليبيين عليها ، فإنهم أخذوا يرقبون جنود الشام ، ولكن حيطتهم باع بالبور إذ وصل شيركوه عن طريق آخر غير طريق الساحل الذى راقبوه ، وفى ذلك يقول عمارة اليمنى مخاطباً شيركوه وجنوده :

أخذتُ على الإفرنج كلُّ ثنيةٍ وقلتم لأيدي الخيل مرى على مرى
لئن نصبوا فى البر جِسراً فإنكم عبرتم ببحرٍ من حديدٍ على الجسرِ (٢)

قال العماد : ودخل أسد الدين الإيوان ، وخلص عليه ولقى الإحسان .

وتردد شاور إلى أسد الدين وتودد ، وتجند بينهما من الوداد ما تأكد ، وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة والأطعمة الواسعة ، والحلاوات والميرة فقال صلاح الدين : هذا أمر يطول ومسألة فرضها يعول ، ومعنا هذا العسكر الثقيل ، وإقامته بالإقامة يقصر عنها الأمد الطويل ، ولا أمر لنا مع استيلاء شاور ، ولا سيما إذا راوغ وغادر . واعترضه صلاح الدين فى الأمراء التورية وهو راكب على عادته فى هيبته الوزيرية ، فبغته وشحته ، وقبضه وأثبته ، ووكل به فى خيمة ضربها له ، وحاول إمهاله . فجاء من القصر من يطلب رأسه ، ويعجل من العمر يأسه . وجاء الرسول بعد الرسول ، وأبوا أن يرجعوا إلا بنجح السؤل . فحم حمامه وحمل إلى القصر همامه (٣) .

(١) المرجع السابق ج ١ ، ص ٢٩٢ .

(٢) النكت العصرية ، عمارة اليمنى ، ص ٨٠ .

(٣) كتاب الروضين ، ج ١ ، ص ٢٩٨ .

وبعد مقتل "شاو" بعث الخليفة الفاطمي بخلمة الوزارة إلى شيركوه قلبسها وقصد دار الوزارة وأرسل إليه الخليفة هذا المنشور :

من عبد الله ووليه أبي العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيد الأجل الملك المنصور، سلطان الجيوش، وولى الأئمة، مجير الأمة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين، أبي الحارث شيركوه العاضدى، عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته، وأعلى كلمته.. سلام عليك، فإنه يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الظاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليما .

هذا عهد لا عهد لوزير بمثله ، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لعمله، والحجة عليك عند الله بما أو ضحه لك من مرشد سبيله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوة. واتخذة للفوز سبيلا، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . (١)

وزارة صلاح الدين :

ولم يمض على وزارة أسد الدين شيركوه أكثر من شهرين وخمسة أيام حتى عاجلته المنية. ولما فرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراؤهم واختلطت أهواؤهم وكاد الشمل لا ينتظم والخلل لا يلتئم. فاجتمع الأمراء النورية على كلمة واحدة وأيد متساعدا، وعقوا لصلاح الدين الرأى والرأية، وأخلصوا له الولاء والولاية، وما زاده الملك ترفعا وما أفاده إلا تأصلا فى السماح وتفرعا، وضم من أمر المملكة ما كان منشورا وهو بالمثال الكريم الفاضلى الذى هو السحر الحلال والعذب الزلال . "ففى ذلك المنشور: "والجهاد أنت رضيع دمه، وناشئة حجره، وظهور الخيل مواطنك، وظلال الخيام مساكنك، وفى ظلمات قساطله تجلى محاسنك، وفى أعقاب نوازله تتلى مناقبك فشمم له عن ساق من القنا، وخض فيه بحرا من الفلبا، واحل فى عقد كلمة الله وثيقات الحبا، وأسل الوهاد بدم العدا، وارفع برعوسهم الريا حتى يتنى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين أن يكون منخورا لأيامك، وشهودا لك يوم مقامك" (٢) .

(١) كتاب الروضتين، ج ١، ص ٤٠٢، ٤٠٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠٩ .

ويعدّ إليه العماد من الشام مهنتاً :

فتحت مصرَ وأرجو أن تصيرَ بها ميسراً فتح بيتِ القدسِ عن كُتُبِ

من شرِّ "شاور" انقضت العبادَ فكم وكم قضيتَ لحزبِ اللهِ من أربِ (١)

نهاية الحكم الفاطمي :

ومنذ الأيام الأولى لوزارة شيركوه وأنظار حكام الشام وشعرانهم متجهة إلى تبديل نظام

الحكم في مصر. فما هو ذا العماد يكتب إلى شيركوه من الشام :

رُدَّ الخلافةَ عبّاسيةً، ودع السُدَّ عى فيها يصادفُ شرُّ منقلبِ

لاتقطعنُ ننبَ الأقمى وترسلهُ فالحزمُ عندي قطعُ الرأسِ كالننبِ (٢)

ولكن الموت لا يمهل شيركوه فيقوم بالعبء صلاح الدين حتى ينجزه في أول المحرم سنة

٥٦٧ هـ، ولم ينتطح فيها عنزان كما يقول ابن الأثير (٣)

ويرسل القاضي الفاضل إلى الخليفة العباسي يخبره بإعادة الخطبة للدولة العباسية

بمصر. حتى أتى الدنيا ابن بجدتها، فقضى من الأمر ما قضى، وأسخط من لله في سخطه

رضاء، وجعل وجهه لابس السواد مبيضا، فأدرك لهم بثأر نامت عنه الهمم، ودوخت عليه

الأمم، وشفى الصدور، وجاء بالحق إلى من غره بالله الغرور، واستبضع إلى الله تعالى

تجارة لن تبور (٤).

(١) المرجع السابق، ص ٤٠٣.

(٢) كتاب الروضتين، ج ١، ص ٤٠٤.

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٦٩.

(٤) كتاب الروضتين، ج ١، ص ٦٢٤.

وحدة الشام ومصر :

وتطلع أنظار مصر الأيوبية إلى وحدة الشام معها لتتمكن من القضاء على الصليبيين ويرسل القاضي الفاضل إلى الخليفة العباسي يخبره بأهداف تطلع الحكم في مصر إلى توحيد صفوف المسلمين فيقول :

توافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها، وتشقت الأمور وتقطعها، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب، وكل جانب قد طمع إليه طالب والفرنج قد بنوا قلاعاً يتحيفون بها الأطراف الإسلامية، ويضايقون بها البلاد الشامية وأمرأء الدولة النورية قد سجن كبارهم، وعوقبوا وصوبروا، والمالِك الأعماذ الذين خدموا الأطراف لا الصدور، وجعلوا للقيام لا للتعهد في المجلس المحضور، قد مدوا الأيدي والأعين والسيوف. وسأوت سيرتهم في الأمر بالمتكر والنهي عن المعروف، وكل واحد يتخذ عند الفرنج يدا، ويجعلهم لظهره سندا. وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه، وأمر الكفر إن لم يجر العزم في قلعه، نبتت عروقه، واتسعت على أهل الدين خروقه، وكانت الحجة لله قائمة، وهمم القادرين بالقعود آثمة. وإنا لانتمكن بمصر منه مع بعد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال البواب التي بها على الجهاد القوة، وإذا حاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليد قاهرة والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعدة. وصلحنا ما في الشام من عقائد معتلة، وأمور مختلفة وآراء فاسدة وأمرأء متحاسدة، وأطماع غالية، وعقول غائبة، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه. فإننا به أولى من قوم ياتكون الدنيا باسمه، ويظهرون الوفاء في خدمته، وهم عاملون بظلمه^(١) .

وبعد صلاح الدين عنده ليضم بلاد الشام ويتحقق له ذلك ويقطع الخطبة للملك الصالح بن نور الدين، ويبعث إلى الخليفة العباسي يطلب إليه توقيعا شرعيا بحكم البلاد. وأنشأ القاضي الفاضل هذه الرسالة ووجهها إلى الخليفة العباسي ببغداد :

(١) كتاب الروضتين، ج ١ : ص ٦٢٢، ٦٢٣ .

كان أول أمرنا أنا كنا في الشام نفتح الفتوحات مباشرين بأنفسنا،
ونجاهد الكفار متقدمين لعساكره نحن وولدنا وعمنا... وكانت أخبار مصر تتصل بنا
بما الأحوال عليه فيها من سوء التدبير ومما نواتها عليه من غلبة صغير على
كبير... فسمت هممنا دون همم ملوك الأرض إلى أن نستفتح مقلها، ونسترجع
للإسلام شاردها، ونعيد على الدين ضالته منها، فسرنا إليها بعساكر ضخمة، وجموع
جمّة... كان في تقدير الله سبحانه أنا نملكها على الوجه الأحسن، وتأخذها بالحكم
الأقوى الأمكن.... وكان باليمن ما علم من ابن مهدي الضال وله آثار في الإسلام، وثار
طالبه النبي عليه الصلاة والسلام لأنه سبى الشرانف الصالحات وباعهن بالثمن
البخس، واستباح منهن كل ما لا تقر عليه نفس، فأنهضنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلفنا له
نفقات واسعة وأسلحة رائعة، وسار فأخذناه والحمد لله... وبالجملة فالشام لا ينتظم أمره بمن فيه،
وفتح بيت المقدس ليس له قرن يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصما لا يمل الشر حتى
يملوا، وقرناً لا يزال يحرم السيف حتى يحلوا، وإذا سدد رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع
في غمده، ويلفنا المنى بمشيئة الله ويد كل مسلم تحت برده، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذي
أسرى الله إليه بعبد،

هذا ما لاح طلبه على قدر الزمان والأنفس تطلب على مقدار الإحسان، فإن في
استنهاض نيات الخدام بالإنعام ما يعود على النولة منافعة، وتنكأ الأعداء مواقعه وتبعث
العزائم من موت منامها، وتنقض البصائر غبار ظلامها، والله تعالى ينجذ إرادتنا في الخدمة
بمضاعفة الاقتدار، ومساعدة الأقدار إن شاء الله تعالى^(١).

(١) مفرج الكرب في أخبار بني أيوب، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، تحقيق د. جمال الشيبان،
القاهرة: دار القلم، الجزء الثالث، ص ٢٩١ وما بعدها.

يايها الملك العزيز فضله	لقد غنوت بالعلماء
كفى أمير المؤمنين شرفا	أنك أصبحت له وليا
طارحك الود على شحط النوى	فكنت ذاك الصادق الوفيا
أولاك من لباسه زخرفة	لم يولها قبلك أنبيا
نامست الروض سنا وبهجة	حتى حكته رونقا وزيا (١)

وهكذا تصيح مصر عاصمة لإمبراطورية واسعة وقد تبدل نظام الحكم فيها من شيعى إلى سنى.

فتنة مؤتمن الخلافة وثورة السودان :

أحس المنتفعون بالسلطة فى ظل الخلافة الفاطمية مرارة التغيير ومضرته، فحاولوا أن يستعيدوا سالف مجدهم فى ظل النولة البائدة. وكانت فتنة السودان أول الفتن التى واجهها صلاح الدين الأيوبي. وكان هؤلاء (السودان) كما يصفهم القاضى الفاضل :

يزيد عددهم عن مائة ألف رجل كلهم أغنام أعجام، إن هم إلا كالأنعام، لا يعرفون ربا إلا ساكن قصره، ولا قبلة إلا ما يتوجهون إليه من ركنه (٢).

وقد عاصر العماد الأصفهاني هذه الواقعة وصورها لنا فى قوله : كان بالقصر خصى يدعى بمؤتمن الخلافة، متحكم فى القصر فدبر مؤامرة مع بعض رجاله وكاتبوا الفرنج، واتفق أن رجلا من التركمان عبر البئر البيضاء فرأى مع إنسان نعلين جديدين ليس بهما أثر مشى فأخذهما وجاء بهما إلى صلاح الدين، ففتقهما، فوجد مكاتبة للفرنج فيهما من أهل القصر يرجون بحركتهم حصول النصر، فأخذ الكتاب وقال : دلونى على كاتب هذا الخط فدلوه على يهودى من الرهط فلما حضره ليسأله، وبعاقبه على خطه ويقابلوه : نطق بالشهادة قبل كلامه، وبخل فى عصمة إسلامه، ثم اعترف بما خباه وشيده من الأمر وبنائه وإن الأمر به مؤتمن

(١) كتاب الروضتين، ج ١ : ص ٦٢٩ . ٦٤٠ .

(٢) ملرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ج ٣، ص ٢٩٢ .

الخلافة، وأنه يرى، من هذه الأفة. واستشعر الخصى القصى، وخشى أن تسبقه على شق العصا العصى، فما صار يخرج من القصر مخافة، وإذا خرج لم يبعد مسافة، وصلاح الدين عليه مغضب وعنه مفض، لا يأمر فيه ببسط ولا قبض، إلى أن استرسل واستبسل، فظن أن مانسله من الشر العقيم فصل. وكان له قصر يقرب قليوب، فخلافه يوماً للذته، ولم يدر أنه يوم ذلته، وانقضاء ساعاته بانقضاء نواته، فأنهض إليه صلاح الدين من أخذ رأسه، ونزع ما جاء به لباسه.

ويتابع العماد حديثه عن هذه الواقعة فيقول : ولما قتل غار السودان وثاروا وكانوا أكثر من خمسين ألفاً. وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه، وأستباحوه واستطوه فحسبوا أن كل بيضاء شحمة، وأن كل سواد فحمة . فثار أصحاب صلاح الدين إلى الهيجاء، ومقدمهم الأمير أبو الهيجاء، واتصلت الحرب بين القصريين وأطاحت بهم العسكرية من الجانبين، ودام الشريومين، حتى أحس الأساحم بالحين وكما لجثوا إلى محلة أحرقوها عليهم، وحووا ماحوا اليهم، وأخرجوا إلى الجيزة، وأذلوا بالنفى عن منازلهم العزيزة، فما خلص السودان بعدها من الشدة ولم يجنوا إلى الخلاص سبيلاً وإنما وقفوا وأخنوا وقتلوا تقتيلاً^(١).

مؤامرة عمارة وأصحابه :

اجتمع جماعة من دعاة النولة المصرية المتعصبة، المتشددة المتصلبة وتوازروا فيما بينهم خيفة وخفية، واعتقوا أمنية، عادت بالعقبى عليهم منية وعينوا الخليفة والوزير وأحكموا الرأى والتدبير وبيتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بنيل، وكان عمارة اليمنى الشاعر عقيدهم ودعا للدعوة قريبيهم وبعييدهم. وكانوا قد أودعوا سرهم عند من أذاعه، واستحفظوا من أذاعه، وكادت أمالهم تدنو من الإدراك، فجاء زين الدين الواعظ وأطلع صلاح الدين على فسادهم، وماسأله من مرادهم، ثم أمر السلطان بإحضار مقدميهم، واعتقالهم لإقامة السياسة فيهم، وصلب جماعة

(١) كتاب الروضتين ، ج ١ ص ٤٥٠

منهم بين القصرين منهم عمارة، وأفنى بعد ذلك من بقى منهم، ومات بموتهم الخير عنهم^(١).

قال أبو شامة: وبلغنى أن عمارة لما مروا به ليصلب عبروا به على جهة دار الفاضل فطلب الاجتماع به، فقيل ليس إليه طريق. فقال:

عبدُ الرحيم قد احتجبُ إن الخِلاصَ هو العجبُ^(٢)

ثورة الكنز:

فى أول سنة ٥٧٠ هـ قام المعروف بالكنز فى الصعيد. وجمع من كان فى البلاد من السودان والعبيد، وعدا ودعا القريب والبعيد. وكان عنده من الأمراء أخ لحسام الدين أبى الهيجاء السمين، ففتك به ويمن هناك من المقطعين فغارت حمية أخيه وثارت للثأر وساعده أخو السلطان سيف الدين وعز الدين موسك ابن خاله، وعدة من أمرائه ورجاله وجاءوا إلى مدينة طود فاحتمت عليهم، فأسرعت البلية إليها وبها وقعت وأتى السيف على أهلها، وباعت بعد عزها بذلها. ثم قصد الكنز وهو فى طغيانه وعدوانه وسونه وسودانه، فسقك دمه، وظهر بعد ظهور وجوده عدمه، وارتقب دماء سوده، وهجم غابه على أسوده، ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز. وطل دمه ولم ينتطح فيه عنز. وارتدع المارقون فما رقوا بعد سلم نفاق، والله لناصرى دينه ناصر وواق^(٣).

(١) ، (٢) المرجع السابق ج ١ ص ٥٦٠، ٥٦٩ راجع تفاصيل هذه الفتن فى السلوك للمقرئى ج ١ ص ٥٤، ٥٤٠ والنكت العصرية ص ٣٩٦.

(٣) كتاب الروضتين، ج ١، ص ٦٠١، راجع تفاصيل ثورة الكنز فى: الكامل فى التاريخ لابن الأثير ج ١١، ص ٤١٤، السلوك المقرئى، ج ١ ص ٥٧.

العدوان الصليبي (١)

يصور أدب المعارك الصليبية البعد الثالث فى شخصية مصر السياسية ولئن بدأت هذه المعارك خارج الحدود المصرية، لكنها سرعان ما انتقلت إليها، وانتقصت من أطرافها باحتلال بيت القدس سنة ٤٩٢هـ الذى أسس فيه الصليبيون مملكتهم الأولى فى أنطاكية سنة ٤٩١ هـ - ١١٩٨م، وكائن القدس فى حوى السلطة المصرية.

ومن خلال تصوير الأدب العربى لهذا الجانب من جوانب الشخصية المصرية تبدو معالمها واضحة فى طبيعتها النضالية، وأسلوب مقاومتها، ومفهوم القومية فى الطابع المصرى ودور البيئة الطبيعية كدأة حربية فى أيدي المصريين، ومدى الترابط الاجتماعى فى البيئة المصرية لاسيما أثناء الشدائد والحروب وقوة الاقتصاد المصرى فى تحمل الإنفاق العسكرى الطويل الأمد، وعديد من الملامح والسمات تلوح من خلال تطور المعارك وتصور الأدب العربى لها.

الطبيعة الحربية

لم يمثل المصريون عنصرا فعالاً فى الجيوش النظامية التى حاربت الصليبيين إذ اعتمد تنظيم الجيش الفاطمى - غالباً - على الجند المرتزقة وارتبط تنظيمه فى العصر الأيوبي بنظام الإقطاع الذى أشرت إليه سلفاً (٢) ومن هنا لم يشارك المصريون مشاركة إيجابية فى المعارك التى دارت خارج مصر، وإن ساهم بعضهم فيها كمتطوعين للجهاد. وغالباً ما كانت تسند إليهم أعمال ثانوية فى خدمة الجيش، وهذا ما عكسه الأدب فى نتائج المعارك الصليبية الأولى التى انتقل فيها جيش مصر الى الشام ليدافع عن بيت القدس ويوقف الزحف الصليبي المتقنم إلى مصر. وحاولت القيادة المصرية متمثلة فى الوزير الأفضل بن بدر الجمالى أن تتجنب الحرب وتسلك طريق المفاوضات السلمية، وهيئات أن يستجيب التخطيط الصليبي لهذا الأسلوب العاجز، فلم يجد "الأفضل" بدا من خوض القتال ورجع بقلوبه المنتهقرة الى مصر. ويأتى دور الأدباء

Croisade La Grand Encycpédie, Page 441, p, 13,

(١)

(٢) راجع هذا الكتاب من ٨٤، كتاب السلوك للمقريزى، ص ٢٨١.

المصريين في تخفيف الصدمة والاستبشار بالنصر القريب فالمعارك جولات والعود أحمد :

العودُ أحمدُ والأيامُ ضامنةٌ عُقبى النجاحِ ووعدُ اللهِ ينتظرُ

وربما ساعاتُ الأقدارِ ثم جرتُ بما يسرُّك ساعاتُ لها آخرُ^(١)

ويقولح الأدب في شحذ العزائم المصرية بالقدر الذى أعانتها ظروفها الداخلية على ذلك، وتعود إلى ميدان القتال في جيوش نظامية وتحارب خارج التراب المصرى فتنتصر حيناً وتهزم أحياناً كما حدث في موقعة قيسارية والرملة سنة ١١٠١م، وموقعة جيبيل وعكا سنة ١١٠٤م وموقعة طرابلس سنة ١١٠٩م وموقعة بيروت وصيدا سنة ١١١٠م^(٢).

ويتمس الأدباء بوابر النصر العسكري فيجعلون منها ترانيم يستقبلون بها الجيش العائد منتصرا حتى يصابر، ويعد العدة لمعركة فاصلة. فهذا الشاعر شرف الدولة جبر الإسكندرى يهنئ الوزير "طلانغ بن رزيك" بنصر حقه على الصليبيين :

أطفا ابنُ رُزيكٍ لهيبَ ضرامه والبيضُ تخطبُ في الرؤوس فتسمعُ

وكتائبُ الشُّركِ كنتَ إزاهما متعرضاً فانفضُ ذاك المجمعُ

ولكم صرعتَ من الفرنجِ سُميدعا بلقائه لك قيل : أنتَ سُميدعُ^(٣)

ويتهلل وجه الشعر المصرى بمقتل البرنسس "أرناط" وحمل هامته

على رمح من رماح المسلمين في إحدى الحملات التى قادتها مصر سنة ٥٥٢ هـ.

فقبلَ البرنسسُ ومن عَساه أعانته لما عتا في البفسِ والعُدوانِ

وأرى البريةَ حينَ عادَ برأسه مرَّ الجنى يبئو على المرانِ

(١) خريدة القصر وجريدة العصر "قسم شعراء المغرب" للعماد الأصفهاني، تحقيق محمد المرزوقي وآخرين، تونس، ١٩٦٦م.

(٢) الجيش المصرى في العصر الإسلامى من الفتح العربى إلى معركة المنصورة، د. عبد الرحمن زكى، ص ٤٦، القاهرة ١٩٧٠.

(٣) الخريدة، ج ٢، ص ٢٢٢.

(٤) الخريدة، ج ١، ص ٢١٢.

وتعجبوا من زرقته في طرفه وكان فوق الرمح نصلاً ثانياً (١)

والزحف الصليبي يقترب من مصر ليحتل العريش وتتطلق الشوانى المصرية لتغير على أسطول الفرنج في غزة والعريش وتحقق بعض الانتصار :

وتلّت في يوم العريش عُروشهم بشبا ضراب صادق وطعان
أجأتهم للبحر لما أن جرى منه ومن دمهم معاً بحران
ولقد أتى الأسطول حين غزا بما لم يات في حين من الأحيان
أحبب إلى بها شوانى أصبحت من فتكها ولها العداة شوانى (٢)

حملة الفرنج على دمياط سنة ٥٦٥ هـ

وحتى ذلك الحين لم تنصهر الشخصية المصرية في بوتقة القتال لتبين عن خصائصها القتالية، ويتاح لها ذلك من خلال الحملات الصليبية التي نزلت بأرض مصر والتحمت بالقوى الشعبية المصرية التي صالت وجات وأسفرت عن وجهها الحقيقي. وقد بدأت الحملات بنزول الفرنج على مدينة دمياط سنة ٥٦٥ هـ، واحتكت بالمقاومة المصرية، وكانت مقاومة صلبة، وجاء الفرنج في عدد كثير، وعدة كثيفة لكنها ارتدت على أعقابها مدحورة :

ولما أتوا . دمياط كالبحر طاميا وليس له من كثرة القوم ساحل
يزيد عن الإحصاء والعد جمعهم ألوف ألوف خيلهم والرؤا جيل
رأوا نونهم أسدا ، بأيديهم القنا ويبيض رفاق أحكمتها الصياقل
وداروا بها في البحر من كل جانب ومن نونها سد من الموت حائل
رجا الكلب ، ملك الروم إذ ذاك فتحها فخاف ، فأم الملك الروم هابل
فعانوا على الأعقاب منها هزيمة كأنهم - ذلا - نعماً جوافل (٣)

(١) الخريدة ، ج ١ ، ص ٢١٢ .

(٢) في أدب مصر الفاطمية ، د. محمد كامل حسين ، ص ٢٦٩ .

(٣) كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٦١ .

ويؤلف عمارة اليمنى تهانيه لمصر والمصريين بجلالة الصليبيين عن دمياط ويشكر أنعم ربه على هذا النصر، ويشيد بفضل أيوب حكام البلاد :

مَنْ شَاكِرٌ : وَاللَّهُ أَعْظَمُ شَاكِرٍ مَا كَانَ مِنْ نَقَمَى بَنَى أَيُوبِ
 جَلَبُوا إِلَى دَمِيَاظٍ عِنْدَ حَصَارِهِمْ عَزَّ الْقَوِيُّ وَذُلَّةُ الْمَغْلُوبِ
 وَجَلَبُوا عَنِ الْإِسْلَامِ فِيهَا كَرْبَةً لَوْ لَمْ يُجَلِّوْهَا أَتَتْ بِكَرْوِبِ (١)

ويخاطب العماد الأصفهاني صلاح الدين مشيدا بدوره في رعاية دمياط واصفا ما حل بالفرنج من الحسرة والندم على قنومهم إليها فمطرانها أمطره صلاح الدين وابلان العذاب، وأسقفها تهدمت على رأسه السقوف، وتكسرت الصلبان ونكست الأعلام :

وَحَطَّتْ دَمِيَاظٌ إِذْ أَحَاطَ بِهَا مِنْ يَرْجُومِ الْبَلَاءِ يَقْذِفُهَا
 لَاقَتْ غَوَاةَ الْفَرَنْجِ خَيْبَتَهَا فزَادَ مِنْ حَسْرَةٍ تَسْفُفُهَا
 فَرَّ فَرِيدُهَا وَأَزْعَجَهَا نَدَاءُ دَلْوِيهَا تَلْهَقُهَا
 يَمَطُرُ مَطْرَانُهَا الْعَذَابَ كَمَا يَرْدَى بِهِدَ السَّقُوفِ أُسْقِفُهَا
 تَكْسَرُ صِلْبَانُهَا وَتَنْكَسُهَا لِقِصَمِ أَصْلَابِهَا وَتَقْصِفُهَا (٢)

حملة الصليبيين على الإسكندرية سنة ٥٦٩ هـ :

وأدرك الصليبيون الخطر الذي يتهددهم في استقرار شئون مصر الداخلية، فقد ذاقت ويلاتهم والإحن الداخلية تمرقهم، أما وقد لاحت بشائر الاستقرار بدخول الناصر صلاح الدين مصر وتوايه منصب وزارتها، فعابوا إلى مهاجمة مصر من جديد، يختبرون مواقع أخرى غير دمياط التي هزموا فيها من قبل، واختاروا الإسكندرية ميدانا لتجربتهم الجديدة وحاولوا اقتحامها سنة ٥٦٩ هـ وصمدتهم المقاومة الشعبية. ثم أفلحوا في الرسو على البر وأنزلوا عددا

(١) المرجع السابق ، ص ٤٦٠ .

(٢) الخريدة ، ج ١ ، ص ١١ ، ١٢ .

ضخما من الرجال والعتاد. ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية ماراعهم ودام القتال يومين، وفي اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب، وكثر الصباح من كل الجهات فارتاع الفرنج واشتد القتال فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها هذا النصر المؤذ تصنعه أيدي المقاومة المصرية وما أعنفها عندما يفزوها الدخيل، ولما وصل صلاح الدين بعساكره كانت جموع المصريين قد أجهزت على العدو وكفى الله المسلمين شرهم وحق بالكافرين مكرهم^(١).

ويسجل القاضي الفاضل في إحدى رسائله أنباء هذه الحملة، ويحلل النوافع التي جعلت مدبرها صاحب صقلية يفكر فيها والنهاية التي آلت إليها حملته. فيقول :

”ومن هؤلاء الكفار صاحب صقلية هذا، وكان حين علم أن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط، فغلبا وهزما وكسرا، وأراد أن يظهر قوته المستقلة بمفردها. وعزمته القائمة بمجردها فعمر أسطولا استوعب فيه ماله وزمانه : فإنه إلى الآن منذ خمس سنين يكثر عدته، ويطلب مقاتلته إلى أن وصل منها في السنة الحالية إلى الإسكندرية أمر رائع وخطب هائل، وما أثقل ظهر البحر مثل حملة، ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله، ماهو إقليم بل أقاليم نقله، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله ولو ذهبنا نصف ما ذهب فيه من ذهب، وما أخذ منه من سلاح وخيل وعدد ومجانيق، ومن أسر منه من خيالة كبار ومقدمين نرى أقدار وملوك يقاطعون بالجمال التي لها مقدار، وكيف أخذه وهو في العدد الأكثر بالعدد الأقل من رجالنا، وكيف نصر الله مع الأصعب من قتاله بالأسهل من قتالنا، لعلم أن عناية الله بالإسلام تغنيه عن السلاح، وكفاية الله لهذا الدين تكفيه مؤنة الكفاح^(٢).

حملة الصليبيين الثانية على دمياط سنة ٦١٥ هـ :

ويبدو أن الصليبيين لم يتحققوا بعد من طبيعة القتال المصرية، وفي الوقت نفسه أدركوا جيدا خطر وثبة مصر الداخلية، وما يمكن أن تؤثره في مجرى الأحداث السياسية والعسكرية

(١) الكامل في التاريخ ، لابن الأثير، ج ١١ ، ص ٢١٤ .

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جمال الدين بن واصل، تحقيق د. جمال الدين الشيبان ج ٢، ص ٢٩٦

فاستماتوا في الوصول إليها وتحطيمها قبل أن تقضى عليهم مهما كان الثمن غاليا وقد ذاقوا مرارة الهزيمة التي حلت بهم بعد نكبتهم في "حطين" وماتلاها من انتصارات إسلامية متلاحقة. فجاؤا إلى دمياط من جديد سنة ٦١٥ هـ يدفعهم الثأر القديم ويفريهم الجمع الحاشد من الرجال والعدة وحاصروا دمياط وضيقوا الحصار ومنعوا الأقوات وهنا تجلت الروح المصرية في نضالها. لقد قاومت دمياط مقاومة عنيفة ولم تمكن الصليبيين من دخولها برغم حصارها الشديد، وكانت تبعث بنداعاتها الفتية إلى حكام مصر وكان على رأسها الملك الكامل الأيوبي تحته النجدة والأخذ بالثأر، وتحمله المسؤولية الكاملة في حماية الإسلام الذي لا يقبل له عذرا في الإهمال أو التقصير :

يَا مَالِكِي دُمِيَاطُ تُفْرَ هُدْمَتُ	شُرْفَاتُهُ كَادَتْ تَجْتُ أَصْوَلُهُ
وَسْؤَالُهُ فِي أَنْ تَجِيبَ دَعَاءَهُ	بَيْنَ الْإِلَهِ وَخَلْقِهِ وَرَسُولِهِ
فَالْعُذْرُ فِي نَصْرِ الْإِلَهِ وَدِينِهِ	مَا سَاعَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ قَبُولُهُ
وَالشُّفْرُ نَاطِرُهُ إِلَيْكَ مَحْدَقُ	مَا إِنْ يَمَلُّ مِنَ النَّمُوعِ هَمُولُهُ
وَلئنْ قَعَدْتَ عَنِ الْقِيَامِ بِنَصْرِهِ	جَفَّتْ نَضَارَتُهُ وَبَانَ ذَبُولُهُ
وَوَهتْ قَوَى الْقُرْآنِ فِيهِ وَرَفَعَتْ	صَلْبَانُهُ وَتَلَّى بِهِ إِنْجِيلُهُ
وَعَلَا صَدَى الْفَنَاقُوسِ فِي أَرْجَائِهِ	وَخَفَى عَلَى سَمْعِ الْوَدَى تَهْلِيلُهُ
هَذَا وَحَقُّهُ وَصَفُّ صُورَةِ حَالِهِ	حَقًّا وَجَمَلْتُهُ وَذَا تَفْصِيلُهُ (١)

ويعود الملك الكامل إلى المقاومة الشعبية يليها استتصراخ المقاومين من داخل الحصار ويأمر أهل القاهرة ومصر بالنفير للجهاد (٢). والعدو ما زال يشدد حصاره حتى أنهك قوة المعتصمين فتسلق سورها واحتلها في شعبان سنة ٦١٦ هـ ووضع السيف في من بقي من المسلمين ونهب السلطان الناس وفرقتهم في الأرض فخرجوا إلى الأفاق يستصرخون المسلمين

(١) السلوك للمقرئى، ج ١، ص ١٩٩.

(٢) المرجع السابق ج ١، ص ٢٠٠.

لإنقاذ مصر من أيدي الفرنج. وقد عقد الفرنج العزم على المضي لاحتلال القاهرة ومصر، وتشتد الأزمة فالمدد الصليبي يتوافد وكان الصليبيين صمموا في هذه المرة أن يقتصوا لأنفسهم وينهكوا مصدر القوة الإسلامية الكامن في مصر ولاسيما وقد بدأ الهجوم التتري يتوغل في بلاد المسلمين في المشرق، فبينما الصليبيون يضيقون الحصار على دمياط سنة ٦١٧ هـ استولى التتار على سمرقند وملكوا الري وهمزان وقزوين وفرغانة وخوارزم وخراسان ومرو ونيسابور وهراة وغزنة^(١).

ويثور الشاعر "ابن النبيه المصري" ويصب غضبه على ملوك الإسلام ويتهمهم بالتخاذل في نجدة المقاومة المصرية الباسلة التي تجرعت مرارة الجلد والصمود في حرب الصليبيين :

ياملوك الإسلام عنهم قعدتُم ككعود الكفار في يوم بدر
وجيوشُ الفرنج في ثغر دميَا طَ يساقونهم بكأسٍ مُر^(٢)

وينقضى عامان والحصار مستمر والإمدادات تتواصل ويحتشد العامة من الشعب المصري والملك الكامل يستتجد بإخوته، والأمراء الأيوبيون من بلاد الشام يتوافقون عليهم وكانت العامة تكرر على الفرنج أكثر مما يكر عليهم العسكر^(٣).

وتبرز هذه الأزمة العنيفة أهمية الموقع المصري ودور بيئتها الجغرافية في تشكيل الحياة السياسية ومن بينها المعارك وطبيعة المصري في مقاومته وعناده من خلال المفاوضات التي دارت بين ملوك بنى أيوب والفرنج إذ رضى الأمراء الأيوبيون أن يتخلوا عن جميع ما أخذه صلاح الدين بسيفه من بلاد الساحل ما خلا الكرك والشوبك للصليبيين في مقابل خروجهم من مصر^(٤). إدراكًا من الأيوبيين بالخطر الذي سوف يحيط بهم جميعا لو تم للصليبيين ملك مصر، ولهذا الأمر نفسه رفض الصليبيون ذلك العرض وبدأ لهم ملك مصر أمرا يسيرا.

(١) السلوك للمقرئزي ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

(٢) ديوان ابن النبيه المصري . تحقيق عمر محمد الأسعد ، ص ٣٣٥ ، الطبعة الأولى دمشق ، دار الفكر ١٩٦٨ م .

(٣) راجع تفاصيل هذه الحملة في كتاب مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك د . سعيد عبد الفتاح عاشور بيروت ١٩٧٢ ، ص ١١٢ وما بعدها .

(٤) الكامل في التاريخ لابن الأثير - : ١٢ ، ص ٢٢٨ ، ط بيروت ١٩٦٦ م .

ويقاتل الشعب المصرى ويظل مثابرا أكثر من ثلاثة أعوام فى معارك الاستنزاف ولايبأس من النصر، ويرسل الله جنوده طوفانا مع تدفق فيضان النيل. حينما تعبر جماعة من المسلمين بحر المحلة إلى الأرض التى عليها معسكر الفرنج ويفتحون مكان عظيما فى النيل فلم يشعر الفرنج إلا والأرض تسبخ من حولهم وحوصروا بين أرض أصابها الغرق وجموع حاشدة من المسلمين تعاورت نبالهم جنود الصليبيين قاتلوا الفرار دون طمع فى شبر من مصر أو الشام. وراح الشعر يتقنى بهذا النصر "فشرف الدين بن عتير" يبعث بهذه التهئة :

سَلُّوا صِهْوَاتِ الْخَيْلِ يَوْمَ الْوَعْدِ عَنَّا	إِذَا جُهِلَتْ آيَاتُنَا وَالْقَنَا اللَّدْنَا
غَدَاةَ التَّقِينَا دُونَ دَمِيَاطِ جَحْفَلًا	مِنَ الرُّومِ لَا يُحْصَى يَقْسِينَا وَلَا ظَنًّا
قَدْ اجْتَمَعُوا رَأْيَا وَدِينًا وَهَمَّةً	وَعَزْمًا وَإِنْ كَانُوا قَدْ اخْتَلَفُوا سُنًّا
تَدَاعَوْا بِانصَارِ الصَّلِيبِ وَأَقْبَلَتْ	جَمُوعٌ كَأَنَّ الْمَوْجَ كَانَ لَهُمْ سَفِينَا
وَأَطْمَعُهُمْ فِينَا غُرُورٌ فَارْقَلُوا	إِلَيْنَا سِرَاعًا بِالْجَهَادِ وَأَرْقَلْنَا
سَقِينَاهُمْ كَأَسَا نَفَتْ عَنْهُمْ الْكِرَى	وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مَنْ عُدِمَ الْأَمْنَا
سَرَى نَحْوَ دَمِيَاطِ بِكُلِّ سَمِيدِعٍ	إِمَامٌ يَرَى حُسْنَ الثَّنَا الْمَغْنَمِ الْأَسْنَى (١)

ويحس « ابن النبيه المصرى » بحلاوة النصر وكان بالأمس غاضبا ساخطا منكرا تقاعس ملوك الإسلام ، ولكنه عاد يترنم بلذة الانتصار :

يَا يَوْمَ دَمِيَاطِ مَا أَبْقَيْتَ مِنْ شَرْفٍ	لِمَنْ تَقَدَّمَ إِلَّا أَنْتَ هَادِمُهُ
عِذْرَاءُ نَادَتْ عَلَى بَعْدٍ فَانْقَذَهَا	مَلِكٌ غَيْرٌ مَصُونَاتُ كِرَائِمُهُ
وَدُونَ دَمِيَاطِ بِحَرْحَالٍ بَيْنَهُمَا	مِنَ الظُّبَى لَيْسَ يَنْجُو مِنْهُ عَانُهُ
صَاحُوا الْأَمَانَ فَلَا سَيْفٌ نَضَمْتَهُ يَدِ	مَنْهُمْ وَلا حَمَلَتْ طَرْفًا قَوَائِمُهُ
ذَلُّوا لِمَلِكٍ أَعَزَّ اللَّهُ صَاحِبَهُ	مُوسَى سَلِيمَانُهُ وَالسَّيْفُ خَاتَمُهُ

(١) السلوك للمقرئى ، ج ١ ، ص ٢١١ .

والتفر من فسح يفتر باسمه	وسلموها وربوا أهلها ومضوا
كما دعا من عيج الأجل نامته	كأنهم أبصروا ما قد مضى زمنا
من رجسهم بعلمنا	طهرت محرابها العالسي رمببرها
بالرغم من هو بالاموت	وقمت تكسر تمثال المسيح به
على عزائمك العليا عزائمته (١)	أشبهت جدك إبراهيم وأثقت

حملة الصليبيين الثالثة على دمياط سنة ٦٤٧ هـ : (٥)

وبالرغم مما حل بالصليبيين من هزائم متكررة في دمياط فما زال أملهم يتجدد لأن الصيد سمين والغاية شديدة الحساسية. فما هي إلا سنوات قليلة مضت على هزيمتهم في دمياط سنة ٦١٨ هـ حتى عادوا إليها من جديد للمرة الثالثة سنة ٦٤٧ هـ بجموع عظيمة يقودها لويس التاسع ملك فرنسا فقد انضم إليهم فرنج الساحل كله وبعث ملك الفرنج إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب كتابا يتهدده فيه ويطلب إليه التسليم ويقول فيه :

أما بعد فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية، كما أنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية. وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأثر البنات والصبيان ونخلى منهم الديار. وقد أبديت لك مافيه الكفاية، بذلت النصح إلى النهاية، فلو حلفت لى بكل الأيمان، وبخات على القسوس والرهبان، وحملت قدامى الشمعة طاعة للصليبان ماريتى نلك عن الوصول إليك وقتالك فى أعز البقاع عليك. فإن كانت البلاد لى فى هدية حصلت فى يدى، وإن كانت البلاد لك والغلبة على، بيدك العليا معتدة لى. وقد عرفتك وحزرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى، تملا السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسيايف القضاء.

فلما وصل الكتاب إلى السلطان كان رده :

(٥) انظر تفاصيل هذه الحملة وأثارها فى الألب، أدب العرب الصليبية.

د. عبد اللطيف حمزة، ص ١٤٨ وما بعدها القاهرة ١٩٤٩.

(١) نبيان ابن التيه المصرى ص ٤٥٦.

بأنه وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك. فنحن أرياب
 قتل منا قرن إلا جدناه ولا نفي علينا باغ إلا دمرناه، فلورأت عينك أيها المجرور
 منكم الحصون والسواحل، وإخراينا منكم ديار الأواخر
 سيوفنا وعظم حروبنا، على أناملك بالندم ولا يد أن تذلل بك التقدم في يوم أوله لنا وأخيره
 والأوائل، لكان لك بك الظنون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون". فإذا قرأت كتابي
 عليك. فيح على أول سورة النحل "أتى أمر الله فلا تستعجلوه". وكن على آخر سورة « ص »
 من نبأه بعد حين ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى. وهو أصدق القائلين: "كم من فئة قليلة
 غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين". وإلى قول الحكماء: إن الباغي له مصرع. وبغيك
 يصرعك وإلى البلاء يقلبك، والسلام مني إليك (١).

ونزلت الفرنج في البر الغربي لدمياط وكان بها الجيش النظامي فناوش الأعداء يوماً ثم
 ترك الميدان واتجه إلى البر الشرقي وفيه مدينة دمياط، ولما شاهد الناس فرار العسكر تركوها
 واتجهوا صوب بلدان الدلتا فدخل الأعداء دمياط سالمين، وقد فرغ شعبيها وهاج على وجهه
 مغادراً أرضه ودياره. وكان بدمياط مجموعة من الفرسان هربت مع الهاريين فأعدمهم السلطان
 جزاءً وفاقاً لما اقترفوه في حق المواطنين، وكان قد استفتى في شأنهم العلماء فأفتوا بقتلهم.
 وتقدم السلطان بعسكره نحو المنصورة وتوافقت عليه جموع الجاهدين من عوام الناس وبدأ
 الشعب المصري يمارس تجربة حرب الاستنزاف فوق أرضه مستخدماً كل وسائل البيئة
 الطبيعية (*) في قتاله (٢).

ولما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب طمعت الفرنج في التقدم لاحتلال البلاد ولكن أزرقة
 المنصورة كانت مقبرة عظيمة لهم، فقد حاربهم المصريون جيشاً وشعباً من حارة إلى حارة ومن
 دار إلى دار. والتجأ الملك "ريدا فرنس" - وعدة من أكابر قومه - إلى تل المنية وطلبوا الأمان
 فأمنهم الطواشي جمال الدين محسن الصالحى، ونزلوا على أمانه وأخذوا إلى المنصورة، فقيد

(١) (٢) كتاب السلوك للمقريزى، ج ١، ص ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٥٦.

* استخدم المصريون حيلهم الفكهة في المعارك، فكان أحدهم ينزل إلى النيل وقد أخفى رأسه في بطيخه
 وأخذ يسميع، فظنه أحد الأعداء بطيخة حقيقية واقترب منها ليأخذها، فانتصه المصري ورجع به إلى
 عسكر المسلمين.

(٣) كتاب السلوك للمقريزى، ج ١، ص ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٥٦.

الملك بقيد من حديد، واعتقل في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان - كاتب ديوان الإنشاء -
 ووكّل بحفظه الطواشي صبيح المعظمي^(٣). ثم أفرج عن الأسرى بعد دفعهم الفدية ورحلوا عن
 مصر يودعهم صاحب جمال الدين بن مطروح بقوله :

قل للفرنسيس إذا جئتَه	مقال نُصَح من قوولِ فصيح
أجرَك الله على ماجرى	من قتلِ عبادِ يسوع المسيح
أتيت مصرأ تبتغى ملكها	تحسب أن الزمرَ ياطبلُ ربح
فساقتك الحين إلى أدهم	ضاقَ به عن ناظرِكِ الفسح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسنِ تدبيركِ بطنَ الضريح
سبعون ألفاً لا يرى منهم	إلا قتيلٌ أو أسيرٌ جريح
ألهمك الله إلى مثلها	لعل عيسى منكم يستريح
إن لم يكن البابُ بذأ راضياً	فرب غشٍ قد أتى من نصيح
فاتخذنوه كاهناً إنّه	أنصح من شقركم أو سطيح
وقل لهم إن أزمعوا عودة	لأخذِ ثأرٍ أو لفعلِ قبيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيدُ باقٍ والطواشي صبيح ^(١)

وقد بعث توران شاه رسالة من مصر إلى الأمير جمال الدين بن يغمو يصور هذه الحملة
 ويبشر بنصر المسلمين قائلاً :

"الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، وما النصر إلا من عند الله، ويومئذ يفرح المؤمنون
 بنصر الله، وأما بنعمة ربك فحدث، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها". نبشر المجلس السامى
 الجمالى بل نبشر المسلمين كافة، بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين . فإنه كان
 قد استفحل أمره واستحكم شره، وينس العباد من البلاد والأهل والأولاد، فنودوا : لاتيأسوا من
 روح الله. ولما كان يوم الإثنين مستهل السنة المباركة نعم الله على الإسلام ببركتها، فتحنا

(١) كتاب السلوك، للمقرئى، ج ١، ص ٣٦٢، ٣٦٤.

الخزائن وبذلتنا الأموال وفرقتنا السلاح، وجمعنا العربان والمطوعة وخلقنا لا يعلمهم إلا الله، فجاؤا من كل فج عميق ومكان سحيق. فلما كان ليلة الأربعاء ترك الأعداء خيامهم وأموالهم وأثقالهم، وقصدوا دمياط هاريين. وما زال السيف يعمل في أديبارهم عامة الليل وحل بهم الخزي والويل. وقتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى بنفسه في اللجج وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج. والتجأ الفرنسيين إلى المنية، وطلب الأمان، فأمناه وأخذناه وأكرمناه، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته وجلاله وعظمته^(١).

واتفق أن الفرنسيين بعد خلاصه من أيدي المصريين عزم على الرحيل إلى تونس فهدده أحمد بن إسماعيل الزيات قائلاً :

يافرنسيسُ هذهِ أختُ مصرَ فتأهبْ لما إليه تصيرُ
لكَ فيها دارُ ابنِ لقمانَ قبراً وطواشيك منكر وتكير^(٢)

التبعات الاقتصادية والدينية :

عبرت الشخصية المصرية عن بعض خصائصها من خلال المعارك الصليبية في ظاهرة التماسك الاقتصادي الذي ينبع من سعتين : أولاً ثراء البيئة الطبيعية، وثانيهما تلاحم الشعب وترابط الجبهة الداخلية. وقد تمكنت بهاتين الطاقتين أن تقف درعا تكسرت عليه أمواج الحملات الصليبية لا في مصر فحسب بل وفي الشام أيضاً، فطالما أمدته مصر بالمال وأنواع الثياب المصرية والجياد العربية^(٣). وناشدته أن يحنو حنوها في قتال الأعداء. قالصالح طلائع بن رزيق^(٤) يحث أسامة بن منقذ^(٥) على الجهاد ويقول :

تأملُ فكم شرطُ شرطتُ عليهم قديماً، وكُم غدرٍ به نُقضَ الشرطُ

(١) ، (٢) كتاب السلوك ، للمقرئزي ، ج ١ ، ص ٤٥٦ ، ٢٥٧ ، ٣٦٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

(٤) كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٠٢ .

وَسَمَّرَ فَإِنَّا قَدْ أَعْنَا بِكُلِّ مَا سَأَلَتْ، وَجَهَّزْنَا الْجِيُوشَ وَلَمْ يَبْطُورَا^(١)

وكما قدمت مصر معونتها الاقتصادية لجيوش نور الدين، فإن المعركة الفاصلة التي قادها صلاح الدين في حطين تحملت مصر أعباءها بتقديم العتاد والمؤونة وكانت جيوش صلاح الدين تهاجم من الشام لقربها وتأتيها الميرة من بلد النيل الخصيب. يصور العماد الأصفهاني تتابع المدد المصرى بقوله :

جاءت كالفتح بالفلك المواخر، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجاً وأفواجاً وأفواجاً
تدب على البحر عقاربها وتجف كقطع الليل سحائبها والحاجب لؤلؤ مقدمها ومقدمها وضرغام
غايتهما وهمامها فطفق يكسر ويسل ويسلب، ويقطع الضريق على سفن العدو ومراكبه ويقف له في
جزائر البحر على مذاهبه^(٢).

ويقول المقرئى : "خرج لؤلؤ على الأسطول من مصر والتقى مع السلطان على القريتين
وعاد إلى الكرك فنارزلاهما، وضايق (السلطان) أهلها ثم رحل عنها ونازل طبرية، فاجتمع من
الفرنج نحو الخمسين ألفاً بأرض عكا، رفعوا صليب الصليبيات، فافتتح السلطان، (طبرية) عنوة
وغازظ ذلك الفرنج وتجمعوا، فسار إليهم السلطان، وكانت موقعة حطين التي نصر الله فيها دينه،
وانهزم الفرنج بعد عدة وقائع وأخذ المسلمون صليب الصليبيات، وأسروا صاحب الكرك والشوبك،
وعدة ملوك آخرين، وقتل وأسر من سائر الفرنج ما لا يعد كثرة^(٣)

وراح الشاعر المصرى "محمد بن أسعد النشابية" يعبر عن فرحة مصر بهذا النصر :

أثرى مناماً ما بعينى أبصيرُ	القدسُ يفتَحُ والفرنجيةُ تُكسرُ
وقمامةُ قُمْتُ من الرجسِ الذى	بزوالهِ وزوالها يتطيرُ
ومليكهم فى القيدِ مصفودٌ ولم	ير قبلَ ذاك لهم مليكٌ يقسرُ
قد جاء نصرُ الله والفتحُ الذى	وعَدَ الرسولُ فسبحوا واستغفروا

(١) كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢) أدب الدول المتتابعة من عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك د . عمر موسى باشا، لبنان، ١٩٦٧ .

(٣) كتاب السلوك المقرئى، ج ١ ص ٩٣ .

فَتَحَّ الشَّامَ وَطَهَّرَ الْقُدْسَ الَّذِي هُوَ فِي الْقِيَامَةِ لِلْأَنَامِ الْمُحْشَرُ
مَنْ كَانَ هَذَا فَتْحُهُ لِحَمْدِ مَاذَا يُقَالُ لَهُ وَمَاذَا يُذَكَّرُ؟ (١)

وقد تحملت مصر تبعات الذود عن المقدسات الإسلامية لا في مصر وحدها ولا في القدس بل وفي مكة والمدينة ، فقد أدى فشل الصليبيين إلى استفزازهم شعور المسلمين فنزلوا بقطع من أسطولهم على الشواطئ الحجازية سنة ٥٧٨ هـ، وركبوا جادين السير إلى بلوغ مدينة الرسول (ص) (٢) ولم يكن بينهم وبينها سوى مسيرة يوم واحد حتى لحقت بهم قوة مصرية يقودها الحاجب لؤلؤ، الذي ركب السبيلين براً وبحراً، وامتطى السابقين مركبا وظهرا، وخطا فأوسع الخطو، وغزا فأنجح الغزو، وحبذا العنان الذي في هذه الغزوة أطلق، والمال الذي في هذه الكرة أنفق.

وهؤلاء الأسارى، فقد ظهروا على عورة الإسلام وكشفوها وتطرقوا بلاد القبلة وتطوقوها، ولو جرى في ذلك سبب - والعياذ بالله - لضاقت الأعدار إلى الله والخلق وانطلقت بالمذبة في الغرب والشرق (٣).

(١) كتاب الروضتين، لأبي شامة، ج ٢، ص ١٠٥.

(٢) راجع تفاصيل هذه الواقعة في كتاب "السلوك" للمقريزي، ج ١، ص ٧٨.

(٣) مفرج الكروب، في أخبار بني أيوب، ج ٢، ص ٢١٢، ٢١٣.

الفصل الثالث

مشاهد البيئة الاجتماعية

الشخصية قوة معنوية تتجسد فى عمليات التفاعل التى تتم فى وسط اجتماعى، متخذة صورة علاقة أو مظهر من المظاهر الاجتماعية المختلفة. وتستمد هذه المظاهر كيانها من عنصرين هامين هما :

١- التراث المادى والنفسى والاجتماعى.

٢- ماتصفيه أحداث العصر من آثار فى النواحي السياسية والاقتصادية والعمرائية والتقاليد والعادات وغيرها مما يشكل ملامح البيئة فى مختلف نواحيها.

والأدب الاجتماعى يعبر عن الواقع من خلال المشاهد الكائنة فى عصره أو ماينبغى أن يكون، وفى الوقت نفسه يكشف - من خلال ذلك عن الصفات النفسية الكامنة وراء السلوك الجماعى من مظاهر أو علاقات، لأن السلوك الإنسانى لم يكن بمعزل يوما ما عن الدوافع المثيرة والحركة له من مفاهيم وقيم وأحاسيس.

ومهما يكن من تسلط النزعة الفردية فى سلوكها فإنها تنشأ فى وسط اجتماعى يطبعها بطابعه، وما كان لها أن تحيا لو لم يحتضنها ذلك المجتمع، فهو الذى يرببها وينميتها ويعطيها الصبغة الشرعية للحياة فيه.

وقد يختلف الأفراد بل والطوائف الاجتماعية فى إطار المجتمع الواحد اختلافا سلوكيا يعبر عن نزعاتها المتعددة وأمزجتها المتباينة، وقد تتناقض فيما بينها تناقضا شديدا ولكنها فى مجموعها عنوان لمؤثرات عصر من العصور، وصفة لشخصية مجتمع من المجتمعات وقد تكون جميعها صادقة فى اتجاهاتها صدقا يعبر عن اختلاف التأثير الذى تحدثه عوامل البيئة وأحداث العصر على فريق من الناس دون فريق آخر. وسنرى مصداقا لهذه الحقيقة من خلال دراستنا لأبعاد الشخصية الاجتماعية فى الأديين الفاطمى والأيووبى، فبينما يفرق فريق من

الناس فى العبادة والزهد والتصوف يفرق فريق فريق آخر فى المذات والتهاك على المتع والشهوات، وكلا الاتجاهين نتاج طبيعى لأحوال الناس فى تلك المرحلة.

وسأطوف فى هذا الجانب من الكتاب بعدة مشاهد من البيئة الاجتماعية من خلال تصوير الأبيبن الفاطمى والأيوبى، لتتعرّف على الجوانب التالية من جوانب الشخصية المصرية :

١- تكوين المجتمع المصرى (عناصره البشرية، وطوائفه الدينية).

٢- العلاقات الأسرية

٣- مظاهر الحياة العامة.

٤- الأعياد الوطنية والدينية.

٥- مظاهر اللهو والمجون.

٦- مظاهر الزهد والتصوف.

تكوين المجتمع المصرى

العناصر البشرية :

أشرت فيما سبق الى الحقيقة القائلة بأن البيئة المصرية بيئة جذب لاطرد وبيئة هضم وأتلاف لا بيئة تفرقة واختلاف، واستعرضت طوائف من العناصر البشرية التى حلت بالساحة المصرية منذ قديم الزمان، كما أشرت إلى انطباعات الرحالة الذين زاروا مصر خلال القرنين السادس والسابع الهجريين - حول هذه الظاهرة الاجتماعية - من أمثال ابن بطوطة، وابن جبير، وناصر خسرو، وابن فضل الكه العمري، وأبو الصلت أمية الأندلسى، وعن خلال النصوص الأدبية لهذه الفترة يمكننا التعرف على العناصر التالية :

القبط :

مع بداية الحكم الفاطمي أخذت طائفة الأقباط في مصر مكانة اجتماعية متميزة عما كانت عليه من قبل، فإذا كان بعض الأقباط في القرن الأول الهجري حاول أن يلحق نفسه بنسب عربي حتى يتخلص من مظاهر الاضطهاد أو الانتقاص الاجتماعي، كما شهدت بذلك، (قصة الحرس) السالفة الذكر^(١). فإن الأقباط - في ظل الحكم الفاطمي والأيوبي - قد وصلوا إلى مناصب في الحكم وشاركوا في إدارة شئون البلاد المصرية : ففي عهد العزيز بالله الفاطمي زاد بلاط الخليفة في إكرام النصارى، لانه كان للعزيز أصحاب مسيحيون منهم "أرستس" خال السيدة ابنة العزيز بالله، وقد عين "بطريكا" على بيت المقدس، كما عين أخوه "أرمانئوس" مطرانا على القاهرة ومصر، وكان لهما تقدير ومودة عند العزيز جعلت بعض الشعراء يعرض بهذه الحالة فيقول :

تَنْصُرُ، فَالْتَصُرُ دِينُ حَقٍّ عَلَيْهِ زَمَانُنَا هَذَا يَدُلُّ
وَقَلَّ بِثَلَاثَةِ عَزْوًا وَجَلُّوا وَعَطَلُ مَاسَوَاهِمُ فَهُوَ عَطَلُ
فَيَعْقُوبُ الْوَزِيرُ أَبُ، وَهَذَا الْعَزِيزُ ابْنُ، وَرُوحُ الْقَدْسِ فَضْلُ^(٢)

ولا أدل على تمتع طائفة الأقباط بحريتهم الكاملة من اعتناق بعضهم الإسلام في ظل المكانة الاجتماعية الممتازة التي عاشوا فيها خلال القرن السادس الهجري. فالخطير بن مماتي - وهو من أسرة عريقة من أقباط أسيوط شاركت في إدارة الحكم في مصر في أواخر العصر الفاطمي وأوائل العصر الأيوبي، وكانت تتمتع بمكانة عالية - يعلن دخوله الإسلام سنة ٥٧٦ هـ. ويهنته الشاعر (ابن الدباغ) بهذه المناسبة.

فَقَلَّ لِعَوَاذِلِي مَهْلًا فِقَلْبِي لَهُ شُغْلٌ بِهِ عَن كُلِّ شُغْلٍ
وَقَلَّ لِلدَّهْرِ دَعَاكَ مِنْ أَمْتِهَانِي فَبِالشَّيْخِ الْخَطِيرِ عَلَّقْتُ حَبْلِي
فَلِإِسْلَامِ مِنْهُ مَحَلُّ فَخْرٍ يَزِينُ مِنْ مَفَاخِرِهِ بِأَقْلٍ^(٣)

(١) انظر هذا الكتاب ص ١٢٢

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ١، آدم متز (مترجم)، ص ٩٥.

(٣) الخريدة، ج ٢، ص ١٢٧، ١٢٨.

ولم يجد أحد شعراء ذلك العصر عيباً في انقطاعه لمليح بعض النصارى الذين كان لهم نصيب من السلطة والحكم، كما فعل الشاعر أبو طاهر إسماعيل المعروف (بابن مكنسة) حين خص بمدائحه (أبامليح) وكان أحد عمال الوزير الفاطمى بدر الجمالى وعندما مات أبو مليح رثاه (ابن مكنسة) بقوله :

طُوِيَتْ سَمَاءُ الْمُكْرَمَاتِ وَكُوِّرَتْ شَمْسُ الْمَدِيحِ
مَاذَا أُرْجَى فِي حَيَا تى بَعْدَ مَوْتِ أبى مَلِيحِ
مَا كَانَ بِالنُّكْسِ الدَّنْسى مِنَ الرِّجَالِ وَلَا الشُّحَيْحِ (١)

حقاً لقد طالب حكام المسلمين أن يرتدى النصارى ما يميزهم من الزي كربط الزنابير على صدورهم، وتعليق الصلبان على صدورهم، ومع ذلك لم يلتزم أقباط مصر بذلك دائماً ومهما يكن من أمر فقد استوحى (ابن النبيه) خصائص هذا الزي وبعض شعائر النصارى فى تصويره الكأس التى يهيم بها :

إِذَا دَقُّ نَاقُوسُهَا بِالْبَزَالِ وَشَدَّتْ عَلَى الْخَصْرِ زُنَّارَهَا
عَبَدْتُ الصَّلِيبَ لِرَاوِقِيهَا وَوَأَقَفْتُ فى الْقَوْلِ خَمَّارَهَا (٢)

ومادام للأقباط فى مصر الفاطمية والأيوبيية حرية فى شتى مظاهر الحياة وأنشطتها فلاريب أن يتغزل الشاعر الخطير فى غلام قبلى :

يَظْلَمْنى الْعَاذِلُونَ فى رِشَا إِنْ قِيلَ كَالشَّمْسِ كَانَ مَظْلُوما
مُدَّ حُلَّ رَسْمِ الصَّلِيبِ فى يَدِهِ حَلُّ بَقْلِيبِى هَوَاهُ مَرْسُوما (٣)

العرب :

اختلفت مظاهر العصبية العربية فى مصر اختلافاً واضحاً عما كانت عليه فى الأقطار الأخرى ومن المعروف أن هذه العصبية بلغت أوج حدتها فى العصر العباسى الثانى وتجلت أكثر

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٥ .

(٢) ديوان ابن النبيه المصرى، تحقيق عمر محمد الأسد، ص ٢٥٢ .

(٣) الخريدة، ج ١، ص ١١٥ .

ما تجلت على ألسنة الشعراء بالمشرق وفي أقلام الكتاب بالمغرب.

يقول أستاذنا الدكتور (محمد نبيه حجاب) : ففي بلاد الأندلس كانت رسائل ابن غرسية، ومن تصدى للرد عليه صفحة أليمة من هذا الصراع العنيف الذي دار بين العرب والعجم، وفي المشرق كان الشعراء الأعاجم يرسلونها صيحة مدوية تقرع الأذان وتنتيه فخرًا بالأصول والفروع فقد كان منهم من يسمو بقومه على البشر ويراجح بهم النجوم^(١).

أما في مصر فقد أخذت شكلا آخر منذ بداية الحكم الفاطمي تميز بالهدوء وعدم الحدة وكان من الممكن أن تأخذ الطابع العنيف، لكن الفاطميين لم يرغبوا في إثارتها عصبية عربية حتى لا يحدوا من شرعية حكمهم ويقصروها على الجنس العربي فحسب، فقد نسب الفاطميون أنفسهم إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول (ص)، وأرانبوا أن يسبقوا على حكمهم طابعا عالمياً لا قومياً، طابعا إسلامياً لا عربياً، حتى لا يثيروا بذلك عداة غير العرب من المسلمين.

وربما كانت نزعة التسامح العامة في مصر الفاطمية سبباً من الأسباب التي دفعت حكام مصر الفاطمية إلى عدم إثارة النعرة العربية كما أثارها غيرهم في أقطار إسلامية أخرى^(٢).
ومن هنا أخذت الطائفة العربية تعبر عن وجودها في مصر من خلال مظهرين في الأدب هما :

الأول : مدح الخلفاء الفاطميين بنسبهم العربي متمثلاً في فاطمة الزهراء ومن خلال هذا المدح يبثون ماشاء الله من المبادئ الشيعة. كما ذهب إلى ذلك عمارة اليمنى في مديحه الخليفة العاضد حين جعل من طاعته والولاء له ديناً مفروضاً على كل مسلم :

ولأُتِكَ دِينَ فِي الرِّقَابِ وَدِينُ وَوَدُّكَ حَصْنٌ فِي المَعَادِ حَصِينُ
وَحُبُّكَ مَفْرُوضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَقُولُ بِحُبِّ المِصْطَفَى وَدِينِ^(٣)

وكما فعل تميم بن المعز لدين الله الفاطمي حين مدح الخليفة العزيز بالله بنسبه إلى

(١) مظاهر الشعوبية في الأدب العربي، د. محمد نبيه حجاب، ص ١٢.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز (مترجم).

(٣) ديوان عمارة اليمنى، ص ٣٦٢.

"مضر" جد الرسول الأعلى، وخلع عليه من صفات الحاكم في نظر الشيعة العديد من الصفات، فالمنروح ليس كغيره من الملوك لأن نفس الإمام الشريفة اللطيفة هي روح قدسية حلت في جسم كثيف تراهى، وإن هذه النفس اللطيفة تناسب العقل الذى سماه هنا بالعلة الأولى على حسب الاصطلاحات الفلسفية والإسماعيلية - وبما أن العقل هو أول ما خلق الله فهو سابق لخلق الهوى، ولما كان العقل الأول هو أقرب مبدعات الله إليه سبحانه فكذلك الإمام الذى هو مثل العقل أقرب المخلوقات إلى الله على هذه النسبة، وهو الذى يتصل بالله تعالى، لأن ممثوله العقل الأول متصل بالله تعالى وأن الإمام آية الله من نسل محمد.

روح من القدس في جسم من البشر	ما أنت دون ملوك العالمين سوى
تناهياً جاز حد الشمس والقمر	نور لطيف تناهى قبلك جوهره
خلق الهوى وبسط الأرض والمدر	معنى من العلة الأولى التى سبقت
وأنت لله فيهم خير مؤتمر	فأنت بالله دون الخلق متصل
وأنت خيرته الفراء من مضر ^(١)	وأنت آيته من نسل مرسله

وهكذا يستمر الأمير في استغلال العقائد الإسماعيلية في مدح شقيقه العزيز بالله بحيث لا يستطيع فهم أشعاره دون التوسل إلى ذلك بتطبيق المثل والمثول ويقول :

ويابن نبي الهدى المصطفى	فيابن الوصى ويابن البتول
ويابن الحطيم ويابن الصفا	ويابن المشاعر والمروتن

فهو يصف الإمام بمعان باطنية، فمناسك الحج في التأويل الباطنى هي محمد (ص) وبما أن الوصى والأئمة يقومون مقام النبي بعد موته فهم يوصفون بصفاته^(٢).

الثانى : الغزل بوصف مفاتن المرأة العربية، وقد اتخذ هذا الغزل مظاهر مختلفة فظافر الحداد يستجير بقومه من فتنة العيون العربية فهي وإن بدت ضعيفة لكنها فتاكة تحمل الموت

(١) ديوان تميم ، ص ٢٢٤ .

(٢) فى أدب مصر الفاطمية ، د . محمد كامل حسين ، ١٧٨ .

الموت الزّوام بين هديها :

هى أسبابٌ وتُدعى حدقاُ يألَقومي من عُيونِ العربِ
فاتقُ الأضعفَ منها فلقد نقضتْ عاداتِها فى الصبِ
واخذر الأضعف من أجدانها فالنّايا بين تلك الهُدى (١)

وعندما تفتنه امرأة قبطية بجمالها يرى أن هذا ظلم من الهوى فكيف تأسر القبطية وهى فى نظره العنصر الأقل فى المجتمع - قلوب العرب، وينعى باللائمة على الهوى :

أما والهوى لو أن أحكامه قسَطُ لما اجترأت أن تملك العربُ القبطُ (٢)

الأرمن :

فى عام ١٠٧٤م تولى بدر الجمالى عدة مناصب هامة فى مصر، فقد عينه الخليفة المستنصر الفاطمى قائدا عاما للجند، ووزير السيف والقلم، ورئيس القضاة وداعى الدعاة واستعان به فى استقرار الأمن واستتباب النظام الذى اختل فى مصر بسبب الأزمة الاقتصادية المعروفة. فاستخدم الوزير كل وسائل العنف، ونجح فى إخضاع السودان والعرب. وقتك بكثير من الأتراك وكان هذا الوزير من أصل أرمنى (٣) وطبيعى أن يستعين بجنود من بنى جنسه، وأن تتكون جاليات أرمنية بمصر، أشار إليها القاضى الفاضل فى إحدى رسائله إلى الخليفة العباسى مصورا حالة البلاد المصرية عند استيلاء الأيوبيين عليها.

وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية موضوعة عنهم الجزية كانت لهم شوكة وشكة وحمية وحمة، ولهم حواش لقصرهم من بين داع تلطف فى الضلال مداخله، وتصيب العقول مخاتله، ومن بين كتاب أقلامهم تفعل أفعال الأسل، وخدام يجمعون إلى سواد الوجه سواد النحل (٤) .

(١) ظافر الحداد ، د حسين نصار ، ص ١٤٢ .

(٢) الخريدة ، ج ٢ ، ص ١٠ .

(٣) مسيرة القاهرة ، (مترجم) ، ص ١٤٢

(٤) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ج ٢ ص ٢٩٢

ولعل واحدة من هذه الطائفة تلك المرأة التي حدثنا عنها البهاء زهير ولم يفهم من كلامها شيئاً، ويبدو أنها كانت تجاوره في نزل أو أنها كانت ربة هذا النزل . ولكنه لم يستعذب لغتها ولم يفهمها، وراح ينعى لفته العربية :

تَكَلَّمْنِي بِالْأَرْمِينِيَّةِ جَارَتِي	أَيَا جَارَتِي، مَا الْأَرْمِينِيَّةُ مِنْ طَبْعِي
وَيَا جَارَتِي لَمْ أَتِ بِيَّتِكَ رَغْبَةً	وَلَا أَنْتِ مِنْ يَرْجِي لَضَرٍّ وَلَا نَفْعٍ
دَعَانِي إِلَيْكَ اللَّيْلُ وَالْأَيْتُنُ وَالسُّرَى	فَصَادَفْتُ أَمْرًا ضَاقَ مِنْ حَمَلِهِ وَسَمِي
كَلَامُكَ وَالسُّوَالِبُ وَالطَّبِيلُ وَالرُّحَى	فَلَمْ أَدْرِ مَا أَشْكُوهُ مِنْ ذَلِكَ الْجَمْعِ
كَلَامُكَ فِيهِ وَحْدُهُ لِي كَفَايَةٌ	كَأَنَّ صَخُورًا مِنْهُ تَقْدِفُ فِي سَمْعِي
لَكَ اللَّهُ مَا لَأَقْبِتُ يَا عَرَبِيَّتِي	وَمَاذَا الَّذِي عَوَّضْتَ بِالْبَانِ وَالْجَزَعِ
سَادَعُوْا عَلَى الْجَرْدِ الْجِيَادِ، لِأَنَّهَا	سَرَتْ فَاتَتْ بِي وَادِيَاغَيْرَ ذِي زَرْعٍ (١)

الترك :

أعانت أوضاع السياسة الداخلية في مصر أواخر الحكم الفاطمي وقيام الحروب الصليبية العنصر التركي في احتلال الصدارة بين العناصر الجنسية في المجتمع . وكانت الانتصارات الحربية التي أحرزها هذا العنصر ضد الصليبيين مسرعا للأدباء، فابن الجاور يصف الترك بأنهم جنود الله لا يخشون المكاره، يقدمون على الموت بشجاعة، لا ينظرون إليه من طرف خفي :

جَاءَتْ جُنُودُ اللَّهِ تَطْلُبُ ثَارَهَا	وَصَلُّوْهَا عَمَّا قَلِيلٍ تَشْتَقِي
هَمْ فَتِيَّةُ الْأَتْرَاكِ كُلِّ مَجْفَجَفٍ	يَفْشَى الْكَرِيْمَةَ فَوْقَ كُلِّ مَجْفَجَفٍ
قَوْمٌ يَخُوضُونَ الْحِمَامَ شَجَاعَةً	لَا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ مِنْ طَرَفٍ خَفِي (٢)

ويستقبل أحد الشعراء صلاح الدين الأيوبي مهنتا بانتصاراته على الصليبيين في مدينة غزة، فيشير إلى عنصرية الجيش الأيوبي، ويعرض بالروم والأقباط .

(١) شرح ديوان بهاء الدين زهير ، ص ١٤٩ .

(٢) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي ، محمد سيد كيلاني ، ص ٢٢١ .

فتى مذ غزا بالخيل والرجل غزوةً نأى عن نواحيها الرضا ودنا السخطُ
 رمأها بأسدٍ مالهن مرابضُ ولا أجمُ إلا الذى تنبت الخطُ
 وعاش ضواحيها ضحى بكتائبٍ من الترك لانوب طغامٍ ولاقبطُ (١)

كما يعرض البهاء زهير بالعرب فى مديحه أحد ملوك الأيوبيين فيصفه بالكرم وأن كرمه لا يعادله كرم حاتم الطائى وكعب بن زهير، ولا ينبغى أن يقارن كرمه بالعرب الصعاليك بل إن عبید ممدوحه تتيه فخرا على كسرى وتفضله :

دعوا ذكركعبٍ فى السماعِ وحساتر
 فليس بعُيدِ اليومِ ذاك التسمُحُ
 وليس صعاليكُ العريبِ كيوسفَ
 تعالوا بناةَ الحقِ والحقُ أوضحُ
 فما يوسفُ يقربى بنابٍ مُسنَّةٍ
 ولا العرقُ مفصودٌ ولا الشاةُ تُذبحُ
 ولكنَّ سُلطانى أقلُّ عبيدِهِ يتيهُ على كِسرى الملوِكِ ويرجعُ (٢)

وسلك بعض الشعراء فى إبراز العصبية التركية مسلك الغزل كالذى رأيناه عند ظافر فى تفضيل المرأة العربية، فابن النبيه بيدي إعجابه بالمرأة التركية، وبالغلعان الأتراك ولا يقف عند وصفهما بالجمال أو إظهار إعجابه فحسب، بل يعرض بالجمال العربى وينفيه.

اللهُ أكبرُ ليسَ الحُسنُ فى العَرَبِ كمُ تحتَ كمةِ ذا التركى من عَجَبِ
 صُبْحُ الجبينِ بليلِ الشعرِ مُنقَدِّدُ والخدُ يجمعُ بين الماءِ والألّهَبِ (٣)

(١) كتاب الروضتين ، ج ١ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ .

(٢) شرح ديوان « بهاء الدين زهير » ، ص ٦٣ .

(٣) ديوان ابن النبيه المصرى ، ص ٢٣٤ ، ٤٠٤ .

ويمضى ابن النبية فى تفضيله الجنس التركى على غيره فيمن يحب ويهوى فيصفه بلين العطف وقسوة القلب، وسهولة الخداع، وصعوبة المراس :

من بنى الترك لين العطف قاسى القلب سهل الخداع صعب المراس (١)

ثم يصف ملامح العينين. وقد تميزت بالضيق، والضيق علامة البخل، فإذا جاد كان كريما فيأض العطاء :

ضيق العين وهو من صفة البخل فان جساد كان ضد القياس (٢)

ويذهب ابن النبية فى تفضيل الجنس التركى إلى الرجوع به إلى الأصل اليافى، ولعله أراد أن يثيرها عصبية بين العروق الجنسية السامية واليافىة كالتى رأيناها فى العصر الحديث لدى بعض المستشرقين الذين بالفوا فى تفضيل الجنس الأرى على الجنس السامى : يقول ابن النبية :

مَوْلَايَ وَجْهَكَ جَنْةٌ وَرَضَا بِكَ الْمَعْسُورُ كَوْثُرُ
يَفْتَرُ مَسْكَ خَتَامِهِ عَنْ مُسْكَرٍ عَطِرٍ وَمُسْكَرُ
مَنْ نَسَلِ يَافِئِ نَافِئُ وَسِنَانُ يَسْهَرِنِي وَيَمْنَحُرُ (٣)

ويحزننا الشاعر من فتنة الجمال التركى، فمعشوقه غزال فى الرقة والعنوية ولكنه يفتك فتك الأسود :

إِيَّاكَ وَالْأَثْرَاكَ إِنْ لِبَعْضِهِمْ أَشْخَاصَ غَزَالٍ وَفِعْلَ أَسْوَدٍ (٤)

وقد دفعه هذا الإعجاب إلى التحدى فعندما تعلق قلبه بحب البدى أخذ يفتخر بجماله على الأثراك وغيرهم فيقول :

قُلِّبِي عَلَى التُّرْكِ بِهَذَا الْبَدْوِيِّ يُفْتَخِرُ (٥)

ويبدو أن الشاعر قد ضاق نرعا بفعل بعض الجنود الأثراك فلأخذ يصفهم بتلك الصفات المزنية :

(١) ، (٢) ديوان ابن النبية المصرى ، ص ٣٣٤ ، ٤٠٤ .

(٣) ديوان ابن النبية المصرى ، تحقيق عمر محمد الأسعد ، ص ٢٦٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٤٢ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٤٣٣ .

صنّف من التّركِ والخُدامِ قدْ بلغَا باقِيعِ الفِعلِ فينا غايةَ الأملِ
فسعدُ هذا بماقدُ قدْ من دُبرِ فيه وهذا بما قدُ قدْ من قبلِ (١)

الطوائف الدينية :

إن من يطالع أدب مصر إبان الحروب الصليبية يجد الإلحاح على فكرة العالمية الإسلامية مطلباً نادى به الأدياء ، الشيعي منهم والسني ، ومداح العرب والأتراك وأصفياء الفاطميين والأيوبيين ، فجميعهم تلاقوا حول فكرة واحدة هي نصرته الإسلام وحماية بلاد المسلمين .

وهذا ابن سناء الملك يعبر عن التحام العناصر البشرية في نصرته الإسلام ويهنيء صلاح الدين الأيوبي بانضمام حلب إلى مصر فيقول :

بنوالة التّركِ عزّتْ ملّةُ العربِ	وبابنِ أيوبِ ذاتُ بيعةُ الصُّلبِ
وفى زمانِ ابنِ أيوبِ غدتْ حلبُ	من أرضِ مصرَ وصارتْ مصرُ من حلبِ
ولابنِ أيوبِ دانتْ كلُّ مملكةِ	بالصُّفحِ والصلحِ أو بالحربِ والحربِ
مظفّرُ النصرِ منعتْ بهمّتهِ	إلى العزايمِ مدلولُ على الغلبِ
والدهرُ بالقدرِ المحتومِ يخدمهُ	والأرضُ بالخلقِ والأفلاكُ بالشُّهبِ
ويجتلى الخلقُ من راياتِهِ أبداً	مبيضةُ النصرِ من مصفرةِ العذبِ
إنّ العواصِمَ كانتْ أيُّ عاصمةِ	معصومةً بتعاليتها عن الرّتبِ (٢)

وقد أشرت إلى تسامح المسلمين مع الأقليات الدينية الأخرى وخاصة أصحاب الشرائع السماوية (٣) ، وإلى بلوغهم مناصب عليا في الدولة ، وإلى انقطاع الشعراء لمديحهم ، ولم يظهر في الأدب المصري ما يدل عن صراع أصحاب الديانات السماوية في مصر ، وإنما ظهر نوع من التعريض بالتصاري وكانت الحروب الصليبية هي المحك الذي أبرز هذا التيار في الأدب .

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠٩ .

(٢) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، د . محمد كامل حسين ، ص ٨٧ .

(٣) راجع تفاصيل هذه العلاقة ، ووضع اليهود والتصاري في الدولة الأيوبية ، كتاب الحضارة الإسلامية ، آدم متز (مترجم) ، ص ٥٧ وما بعدها .

قال الشاعر "الجويني" يبعث بهذه التهنئة من مصر إلى صلاح الدين بعد استيلائه على القدس ويعرض بالمسيحية :

لَوْ أَنَّ ذَا الْقَتْعِ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ لَقَدْ تَنَزَّلَتْ فِيهِ آيَاتٌ وَقَرَأُنُ
يَأْتِيحُ أَوْجُهُ عِبَادِ الصَّلِيبِ وَقَدْ غَدَا يَبْرِقُهَا شَوْمٌ وَخَذْلَانُ
خَزَنْتَ عِنْدَ إِلَهِ الْعَرْشِ سَائِرُ مَا مَلَكَتَهُ وَمَلُوكُ الْأَرْضِ خَزَانُ (١)

ويقول شاعر آخر :

قَدْ أَنْصَفَ التَّوْحِيدَ مِنْ تَكْلِيفِهِمْ وَأَقَامَ فِي الْإِنْجِيلِ حَدَّ الْمَصْحَفِ (٢)

ويتهكم ابن مطروح من الملك "لويس التاسع" أثر هزيمته في المنصورة وحبسه في دار "ابن لقمان" فيدعوه له بالأجر، لأنه كان سببا في قتل عباد المسيح :

أَجْرَكَ اللَّهُ عَلَى مَا جَرَى مِنْ قَتْلِ عِبَادِ يَسُوعِ الْمَسِيحِ

وقد تجلت هذه الظاهرة بوضوح في أشعار البوصيري ولاسيما مدائحه للرسول (ص) إذ كان دائم التعريض بالنصارى وعقيدتهم، يقول في قصيدة البردة.

دَعُ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتُمْ مَدْحاً فِيهِ وَاحْكُمْ

وإذا كانت الطائفة المسيحية قد عاشت في وئام مع المسلمين في مصر وشاركت في الدفاع عن أرضها ضد الصليبيين الذين أعلنوها حربا دينية، وهي في الحقيقة حرب استعمارية فإن المصريين لم يتقبلوا الطائفة اليهودية وفي هذه الأبيات يعبر أحد الشعراء عن رأيه في الجالية اليهودية :

يَا يَهُودَ الزَّمَانِ أَنْتُمْ حَمِيرٌ وَتِيُوسُ بِكُمْ تَقَاسُ التِّيُوسُ
حِينَ أَنْحَى "شمويل" فِيكُمْ رَيْسًا وَيَقْدِرُ الْمَرْمُوسُ يَأْتِي الرَّيْسُ
هُوْثُودُ وَرَيْثُهُ كَانَ عَجَلًا مِنْ قَدِيمٍ وَصَهْرُهُ جَامُوسُ (٣)

(١) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، د . محمد كامل حسين ، ص ١٩٦

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(٣) الخريدة ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

العلاقات الأسرية

سئل أحد الجاهليين عن سر تسميتهم أبناءهم بأسماء خشنة مثل صخر وحرب ومرار وتسميتهم عبيدهم بأسماء رقيقة مثل بلال ورياح فأجاب : "إنما نسمى عبيدنا لأنفسنا ونسمى أبناءنا لأعدائنا". وكان هذا الجاهلي صادقاً كل الصدق في تمثيل ما تعكسه العلاقات الاجتماعية على النظام الأسرى، وهو صادق أيضاً في تصوير العلاقة بين الطبيعة وسلوك أهلها، وما يسود بينهم من قيم اجتماعية، فالصحراء المخيفة بوحوشها ولصوصها وجديها رعنقها تحتاج إلى الخشونة حتى في الأسماء التي يطلقها سكانها على أبنائهم يرهبون بها عدوهم ويستمدون منها الأمن لأنفسهم. ومن هنا اعترز الجاهلي بقبيلته وتحدث عن مختلف العلاقات القائمة بين أفرادها. ويمكننا أن نتابع صور هذه العلاقات من خلال العرض الذي قدمه أستاذنا الدكتور "أحمد الحوفى" في كتابه "المرأة في الأدب الجاهلي".

وإذا ما تتبعنا الأدب المصرى فى العصرين الفاطمى والأيوبرى فإننا لانجد فيه حديثاً واضحاً عن العلاقات الأسرية. مع أن الأسرة المصرية معروفة بتماسكها الشديد، فلعل سبب ذلك أن العلاقة الأسرية تختلف عن العلاقة القبلية، فانتفاء المصرى إلى المجتمع كوحدة متكاملة لم يدفعه إلى البحث فى العلاقات الجزئية التى اعتم بها غيره ممن يعيشون فى ظل النظام القبلى ليواجهوا بوحدهم القبلية قوة أخرى مضادة فى المجتمع نفسه.

ولقد أحس المصرى بانتعائه القوى إلى المجتمع، والتصاقه الشديد بالأسرة، فلم يعد هناك حاجة تدفعه إلى العمل على تنمية العلاقة بين أفراد الأسرة الصغيرة، وبذلك لم يقدم لنا الأدب المصرى فى تلك الفترة ما ينم عن وضع المرأة فى الأسرة أما أو بنتاً أو زوجة أو قريبة، كما لم يحدثنا عن العلاقات القائمة بين أبناء العمومة أو الأقربين من الأرحام والعصب كالتى حدثنا عنها الأدب الجاهلى مثلاً. ولعل سبب ذلك أيضاً : أنه لم تكن هناك انقسامات داخل الأسرة المصرية حتى يندفع الشعراء إلى العمل على رآب الصدع ولم يكن هناك ظلم واقع على المرأة حتى ينبرى المصلحون للدفاع عن حقوقها بإبراز قدرها وتبيان خدماتها للمجتمع. وإنما كانت هناك عواطف رقيقة نحو البنوة وعلاقة ظرف ومحبة واشتفاء نحو النساء. وهذا ما نلاحظه

من خلال استعراض الأدب المصرى الذى يتحدث عن العلاقة الأسرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبي.

الأبناء :

لم يقدم لنا الأدب المصرى صورة كاملة عن البنوة، وإنما أشار إلى بعض الحقائق العامة فى العواطف نحو الأبناء فمحببة الأبناء على علاقتهم طبيعة فطر الله الناس عليها يعبر عن هذه الحقيقة أحد الشعراء المصريين بقوله :

لا فَرْقَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ فِؤَادِي فِى حَالِ قُرْبِي مِنْكُمْ وَبِعَادِي
فَلَقَدْ حَبَبْتُكُمْ عَلَى عِلَاتِكُمْ كَمَحَبَّةِ الْآبَاءِ لِلأَوْلَادِ (١)

وهناك صورة أخرى نراها شديدة الصلة بالشخصية المصرية فى تصوير العلاقة الأسرية، وهى أن بعض الشعراء كان يتوسل إلى من يمنحهم بإثارة العواطف الأسرية وهى عواطف تقوم على إثارة نوازع الرحمة والشفقة، وإن مزجها بعض الشعراء بشيء من التعفف لكنها نعمة محببة للمصريين حتى يومنا هذا "من أجل الأولاد". هذه النعمة القديمة الجديدة هى التى يرددها الشاعر المصرى البهاء زهير فى مديحه الناصر يوسف بن محمد بن عادى بن أيوب :

وَنَفْسِي بِحَمْدِ اللَّهِ نَفْسٌ أَيْبَةٌ فَهِيَ لَا تَهْفُو وَلَا تَلْتَهِفُ
وَلَكِنْ أَطْفَالًا صَفَارًا وَنَسْوَةً وَلَا أَحَدًا غَيْرِي بِهِمْ يَتَلَطَّفُ
أَغَارُ إِذَا هَبَّ النُّسَيْمُ عَلَيْهِمْ وَقَلْبِي لَهُمْ مِنْ رَحْمَةٍ يَتَرَجَّفُ
سَرَّوِي أَنْ يَيْتُونُو عَلَيْهِمْ تَتَعَمَّمُ وَحُزْنِي أَنْ يَيْتُونُو عَلَيْهِمْ تَقْشَفُ
نُحِرْتُ لَهُمْ أَطْفَالَ الْإِلَهِ وَيُوسُفَا وَوَاللهِ لَا ضَاعُوا وَيُوسُفُ يُوَسِّفُ (٢)

(١) الخريدة ، ج ٢ ، ص ١ .

(٢) شرح ديوان بهاء الدين زهير ، ص ١٦٩ ، البهاء زهير ، مصطفى عبد الرزاق ص ٥٦ .

وربما ضاق بعض الشعراء ذرعا بالبنوة والأسرة لآكرها فيها، وإنما الفاقة والعوز جعلته ملولا حتى من زوجه ، لأنه إن اقترب منها أنتت له بالبنين، وإن أراد طلاقها عاقه دفع مؤخر صداقها، وهكذا أصبح الخوف من إكثار البنوة مصدر عذاب الشاعر أبى الحسين الجزار :

وله زوجة متى نظرتَه حَبَلَتْ لَيْتَهَا عَجُوزٌ عَقِيمٌ
ظَلُّ فِي أَسْرِهَا لِأَجْلِ كِتَابٍ مَعْلَمٌ يَقْتَضِي بِهِ الْمَعْلُومُ
فهو يخشى الطلاق فقدأ (١).....

المرأة :

على الرغم من سمو مكانة المرأة المصرية ونيلها من حقوقها فى مختلف عصورها مالم تتله امرأة فى مجتمع آخر، وعلى الرغم من نشاط المرأة المصرية فى مجال السياسة (٢) والآداب فى العصرين الفاطمى والأيوبي فإن الأدب فيها لم يصور لنا إلا جانباً واحداً هو وصف جمالها وما يرتبط به من زينة وفتنة وبواعث الحب أو الجنس ومظاهر إعجاب الرجال بها فجاء الحديث عنها معبراً عن نول رجال ذلك العصر حيال جمال المرأة أكثر من أى شىء آخر.

فقد تحدث الشعراء عن المرأة محبوبة، ومعشوقة وأخنوا يتأملون مفاتها، ويبرزون مارات لهم من محاسن جسعها فى إقبالها وإدبارها، ويتوددون إليها ويبثونها أشواقهم التى تتبىء عن الظرف أو الجنس.

ويكاد ينعقد إجماعهم على الإعجاب بطول القامة ونعومة الجسم. وطول القامة يناسبه طول العنق، وبهذه المحاسن يصف أحد الشعراء فانتته بقوله :

(١) المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ، ص ٨ ، ٢ .

(٢) من ذلك ما قامت به سيدات القصر الفاطمى فى إدارة الشؤون السياسية من وراء ستار كتدبير مقتل الصالح طلائع بن رزيك . والاستغاثة بجيش نور الدين ، ومن ذلك ما قامت به شجرة البر التى حكمت مصر ثلاثة شهور . وترجم العماد الأصفهاني فى الخريدة لأبيبات مصريات ، وذكر نماذج من أشعارهن . وذكر الألفوى تراجم لأربع نساء هن : تاج النساء ابنة عيسى بن على بن وهب ، خديجة بنت على بن وهب ، رقبه بنت محمد على بن وهب . مظفرية بنت عيسى بن على بن وهب ، مقدمة الطالع السعيد للألفوى

وفى ذلك الحى خمصانة لها عنق الشادن الأغييد (١)

ويقول آخر مشيداً بصفة الهيف ونعومة الجسم أيضا :

ولى فيهم شادن أهيف يفوق على الغصن المانس (٢)

ويضيف ثالث إلى صفة الهيف جمال العيون ويشبها بعيون الطباء الواسعة :

وأهيف للغصن أعطافه وللظباء العين عيناها (٣)

وطول الجسم أمر نسبي، فلا ينبغي أن يزيد عن الحد اللائق ولا أن يصل إلى حد

القصر فبهذه السمات يتمنى عمارة أن يستمتع بالمرأة أو بالنساء :

من كل ذات قوام مجنونة كالعنان

لا بالطوال العوالي ولا القصار السمان

يمشيين مشى حمام مقيد الخطوعان

فهذه بئدر تم وهذه غصن بان (٤)

واجتمع ثوق ذلك العصر على تفضيل نحولة الخصر وعظم الردين فى جمال الجسم :

مفرى بحب الغانيات هفت به هيف الخصور ورجح الاكفال

غرس القضيب على الكتيب بقدها فانت بميان على منهل (٥)

ويشبه أحد الشعراء ما يلقاه من عنت وظلم حبيبه، بالعنت الذى يلقاه خصره الفحيل من

ردفه الضخم العظيم :

يمشى فيلقى خصره من ردفه مثل الذى ألقاه من إعاته (٦)

(١) الخريدة ، ج ٢ ، ص ٧٢ . ه خمصانة : ضامرة الخصر والبطن

(٢) ، (٣) المرجع السابق ص ٢٦ ، ص ٨٧

(٤) ديوان عمارة اليمنى ، ص ٣٨٢ .

(٦) الخريدة ج ٢ ، ص ٨٢ ، ص ١٢ .

ولكن شاعرا آخر يشيد برشاقة جسم محبوبته فعلى الرغم من تحول الخصر وضعفه
لكنه لا يتألم من عظم الردين :

وَلَوْ سَأَلْتُ أَمْرًا لَمَا كَانَ خَصْرُهَا عَلَى ضَعْفِهِ مِنْ رِدْفِهَا يَتَظَلَّمُ (١)

ويحسب أحد الشعراء أن الخصر مفروز في الردف، ولكنه يلاحظ تنثي الخصر في
الردف فيفطن إلى نحولة الخصر وعظمة الردين

لَوْلَا تَنَثَّى خِصْرِهِ فِي رِدْفِهِ مَا خَبِلْتُ إِلَّا أَنَّهُ مَفْرُوزٌ

تَهْفُو غُلَاتُهُ عَلَيْهِ لَطَافَةً فَيَجْسُمُهُ مِنْ طَرَزِهَا تَطْرِيضُ (٢)

ويشكو أحد الشعراء من ضخامة نهدي محبوبته، لأنها حالاً نون تلاقى القليين ساعة
العناق :

شَكَوْتُ إِلَيْهَا نَهْدَيْنِ فِي الصَّدْرِ بِأَعْدَا مُعَانِقِهَا عَنْ ضَمِّهِ وَهُوَ مُقَرَّمٌ (٣)

أما العيون فأعجبوا منها بالدعج :

يَا مُعِيرَ الْفُصْنِ قَدْ أَمْنَيْفَا وَمَعِيرَ الظَّبْيِ طَرْفًا أَدْعَجَا (٤)

عَلِمْتُ عَيْنَاكَ عُنْزِي فِيهِمَا فَأَقَامْتُ لِي فِيكَ الْحُجْجَا

وتغنوا بجمال الوجه واقتنوا فيه بالخال على الجبين، والحمرة على الخدين :

تَتِيهِ بِغُورَةِ بَدْرِ التَّمَامِ وَسَالِفَةِ الرِّشَاءِ الْأَغْيَدِ (٥)

وأشأنوا بنضارة الخود وسريان ماء الحياة فيها

وَرَقَّ مَاءُ الْحُسْنِ فِي خَدِّهِ فَفَتَّحَ السُّورِدُ وَنَدَاهُ (٦)

(١) الخريدة ، ج ١ ص ١٦٢ .

(٢) الخريدة ج ٢ ، ص ١٣

(٣) الخريدة : ج ٢ ص ٤٨ .

(٤) الخريدة ، ج ٢ ، ص ٧٢ . والسالفة : ناحية مقدم العنق .

(٥) الخريدة ، ج ٢ ، ص ٨٨ .

(٦) المرجع السابق .

ويقول آخر :

يَسْتَوِ عَلَى السُّودِ الْجَنَى إِذَا بَدَأَ خَجَلٌ مِنَ التَّقْصِيرِ عَنِ وَجَنَاتِهِ (١)

ويشرق جمال الوجه في إطار الشعر الأسود :

شَمْسُ الضُّحَى غُرَّتُهُ وَالنُّجَى طُورَتُهُ وَالْمَسْكُ رِيَاءَهُ (٢)

واستملحوا منها عنوبة الريق ورائحة الفم الطيبة :

قَدْ مَزَجَ الخَمْرَةَ مِنْ رِيْقِهِ بِبَرْدِ كَافُورِ ثَنَائِيَاهُ (٣)

أما زينتها فكانت وشما تضعه على خدها . فترسم بالمسك صورة عقرب أو ثعبان إثارة أو إغراء ، فهي توحى للرجل وتناديه حينما تحذره من الاقتراب أو تخيفه من العقرب أو الثعبان . ومع ذلك فلا بأس بهذا اللذغ ، ولا بأس من الاقتراب .

فالشاعر ابن عرام يصف حبيبته بالقسوة ، ومع ذلك فإنه يقبله على الرغم من أن

العقرب يلدغه :

مَنْ مَعِينِي عَلَى اقْتِنَاصِ غَزَالٍ نَافِرٍ عَنِ حَبَائِثِ رَوَاحٍ

قَلْبُهُ قَسْوَةٌ كَجَلْمُودِ صَخْرٍ خَدُهُ رِقَّةٌ كَزَهْرِ الْبَاغِ

كَلِمَا رَمَيْتُ أَنْ أَقْبِلَ فَاهُ لَدَغَتْهُ عِقَابُ الْأَصْدَاغِ (٤)

ويرسل الملك العزيز إلى وزيره طالباً أن تتغزل في جارته صنعت على خدها بالمسك

حية وعقرباً فقال بديها :

فَدَيْتُهَا مِنْ غَادَةٍ مَخْلُوقَةٍ مِنْ طَرِبِ

سَأَلْتُهَا فَمَنْ قَبِيلَةٍ فَمَنْ خَدُّهَا الْمَذْهَبِ

فَجَاوَبَتْ مُعْجَبَةً بِكَفِّهَا الْخَضْبِ

(١) المرجع السابق ، ص ١٢

(٢) ، (٣) الخريدة ، ج ٢ ، ص ٨٨

(٤) الخريدة ، ج ٢ ، ص ١٩٢

روضتُ خدِّي حُرستُ
 بحُنيةٍ ومقربِ
 من رامَ أنْ يلثمَهَا
 قلْبَ قيسٍ بالذهبِ
 وليشربِ الدُرِّياقَ من
 رضابِ ثغري الشنْبِ (١)

ويعترف القاضى الفاضل بفتنة العقب، لكنه اكتشف أن لها رقية تعجزها عن اللذغ وتكف أذاها عنه، ألا وهى القبلات :

حدُّنا يا فتى وأخبرنا
 وأيما شئتُ منهما فقل
 عن حيةٍ فى الخدودِ ظالمَةٌ
 تمنع من شمْ وودها الخضل
 إن لها رقيةً مجرِبَةٌ
 وإن ألقاها من القبلِ (٢)

ويبدو أن رقية الشاعر لم تغلح دائما فتراه يعاتب محبوبته قائلاً :

يا كعبَةَ الحسنِ التى زارها
 مخرمها عُريانَ مَنْ وَصَلِ
 من أمرِ العُقربِ فى الخدِّ أنْ
 يفتى فينا : اللثمُ بالقتلِ (٣)

ويصور القاضى الفاضل زينة المرأة برسم الحية على خدها، ويصف الخد بالحمرة الشديدة التى تشبه الجمر :

من حيةٍ فى الجمرِ ما احترقتُ
 والجمرُ فوقَ الخدِّ ما اشتعلَا
 لو أنْها تِلْكَ التى انقلبتُ
 يومَ العصا لم يعصِ من جهلا (٤)

واللدلال الأنثوى متعته فى نظر النوق المصرى :

غراءُ غرَّتْها الشبيبةُ فأكتستُ
 تيهَ الدُّلالِ ومِرَّةَ الإِدلالِ
 معكورةٌ مكرتُ بقلبي والهوى
 يستضعفُ المحتالُ للمختالِ (٥)

(١) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ، د . أحمد أحمد بدوى ، ص ٣٥ .
 (٢) ، (٣) ديوان القاضى الفاضل ، ج ١ ، ص ٨٧ . استخدام القاضى الفاضل علم الحديث فى الغزل وهو إحدى خصائص العصر كما سلووضحه .
 (٤) ديوان القاضى الفاضل ، ج ١ ، ص ٤٨ .
 (٥) الخريدة ، ج ٢ ، ص ٨٢ . المكورة من النساء : المدمجة الخلق مستديرة الساقين

ويعجب البهاء زهير بلون السمرة في المرأة :

وسَمْرَاءَ تحكى الرُّمَحَ لوناً وقامةً لها مهجتي مبنولةً وقيادي (١)

تلك أبرز معالم جمال المرأة في نظر النوق المصري من خلال الأدبين الفاطمي والأيوبي، وهي كما تبدو بعيدة عن النوق الفرعوني الذي نشاهده في التماثيل والرسوم الفرعونية، حيث نرى صورة المرأة المصرية فارعة الطول، واسعة العينين، ضئيلة الرفعين لها جسم متناسق يساعد على الحركة السريعة لا على الثنى والتمايل والتكسر.

وفي الوقت نفسه أرى أن النوق المصري في العصر الوسيط لم يبتعد عن النوق العربي في تصور المرأة الجميلة وقد أجمله الشاعر الجاهلي في قوله :

هَيْفَاءُ مُقْبِلَةٌ عِزَاءً مَدْبِرَةٌ لا يُشْتَنَكِي قِصْرَ مِنْهَا ولا طَوْلَ (٢)

ونلاحظ إعجاب المصريين بجمال العين الدعجاء على عكس ما وصف به النوق العربي جمال العيون في الاتساع والاحورار وشبهوها تارة بمقلة الطيبي وأخرى يعيون المها قربما كان النوق المصري يعكس بعض ملامح البيئة الاجتماعية، وقد كثر فيها العنصر التركي من نساء وغلما ن حسان، والترك هم الذين يتميزون بدعجة العيون، فمن الممكن أن تكون هذه الصفة قد أصبحت محببة إلى المصريين حبا حقيقيا، أوفنيا ففدت صفة ويستعذبونها في أشعارهم.

وقلما نجد تصويرا لمكانة المرأة الاجتماعية في أدب هذه الفترة ومن ذلك القليل مارواه المقرئ من أن الملك المعز أمر سنة ٦٥٢هـ، ألا تخرج المرأة من بيتها ولا يمشی رجل بلا سراويل. فقال أبو الحسن الجزار في ذلك.

حَسْنَا الملكُ المعزُ على الرُعَايا وَالزَمَهُمُ قِوَانِينَ المَرْوَةِ

وَصَانُ حَرِيمَهُمُ من كلِّ عَارٍ وَالْبِسَهُمُ سِرَاوِيلَ الفِتْوَةِ (٣)

وفيما عدا ذلك لا ترى آثاراً أدبية توضح لنا العلاقة الأسرية القريب منها أو البعيد.

(١) شرح ديوان البهاء زهير ، ص ٧٩

(٢) شاعر الغزل ، عباس العقاد ، ص ١١٧ ، القاهرة ١٩٦٤ م .

(٣) كتاب السلوك ، ج ١ ص ٣٩٧

مظاهر الحياة العامة

لكل إقليم وكل عصر مظاهر حياته العامة التي قد يشترك فيها عصران أو بيتان ولاشك أن العامل الزمني هو المحك الرئيسي للتعرف على خصائص بيئة من البيئات من خلال مظاهر حياتها العامة، فشيوع بعض المظاهر أو اختفاؤها يعين في تحديد سمات العصر بحيث يمكن القول بوجود مظاهر محددة تميز حياة الناس في العصر الحجري أو عصر البخار أو غيرها. ومع ذلك فلا يمكن إغفال تفاعل هذا العامل الزمني مع خصائص البيئة الجغرافية والطبيعة البشرية. وسأقلب صفحات الأدبين الفاطمي والأيوبي لنرى من خلالهما بعض المظاهر العامة في حياة المصريين مثل : الأطعمة والنور، والحمامات، ووسائل المواصلات، والأندية العامة :

الأطعمة :

كانت مصر غنية بمواردها الغذائية من لحوم وأسماك وطيور وفواكه ومن خيراتها طعم الأدباء وتبادلوا الدعوات على تناول الأطعمة. فهذا الشاعر المصري ظاهر الحداد يدعو أحد أصدقائه إلى تناول الطعام معه، وكان قد أعد له نوعاً من السمك يسمى سمك (الراي) ويبدو أنه نوع من الأسماك التي تعيش في النيل وتتميز بلحم طرى خال من العظام والشوك وبهذا يفرى الضيف على قبول دعواه ويطمئنه على سلامة أسنانه من تناوله :

أمالك في السراي رأيتُ فإن له صفةً أو جيبتُ أن يحسبُ
تربى مع النيل حتى ربا وصار من الشحم ضخماً خدبُ
ولاحس للعظم في أكليه فليس على السن منه تعبُ (١)

ويستمر الشاعر في إغراء صديقه فيصور له السمك قبل أن ينضج ناصع البياض فإذا ما دخل في الزيت علتة طبقة من الحمرة المشوية بصفرة فكأنه سكينه بيضاء مصقولة طليت بالذهب :

يروقك نيئاً وفي قلبه فتتظرو في حالتيه العجبُ
تصوول السكاكين مصقولة وفي القلى تمويهها بالذهب (٢)

(١) الخريدة، ج ٢، ص ١٦ . والخب : الضخم والعظيم

(٢) الخريدة، ج ٢، ص ١٦، ص ٥٠

ويظهر من خلال هجوم بعض الشعراء على المستفيدين في النولة - أن اللحم كان وغيرا إلى الحد الذي أصبحت فيه الأحشاء (كالطحال أو المصران) تقدم للقطط وغيرها من الحيوانات، فهو يخاطبهم قائلا :

وارتَعُوا فِي جَنُودِ ذِي النُّوْلَةِ الْهَامِي نَدَاهَا فِي أَطْيَبِ اللَّحْمَانِ
وَأَشْفَلُونَا بِمَا بِهِ يَشْفَلُ الْهَرَّ لَنْفَعِ أَوْ خَيْفَةَ الْعَدَوَانِ
بِالطَّحَالِ الْمَسْبُودِ أَوْ طَرَفِ الرِّيَّةِ أَوْ بِالْمَعْلَاقِ وَالْمَصْرَانِ (١)
وما أكثر الفواكه التي ذكرها الشعراء واصفين ومشبهين..

فظافر الحداد يتأمل البلح الأحمر متدلّيا على نخلته وقد أحاط بها السعف الأخضر فكأن
البلح في حمرة عقيق، وكان الخوص في خضرته زبرجد :

انظُرْ إِلَى الْبَسْرِ إِذْ تَبَدَّى وَلَوْنُهُ قَدْ حَكَى الشُّقِيْقَا
كَأَنَّمَا خَوْصُهُ عَلَيْهِ زَبْرَجْدٌ مِثْمَرٌ عَقِيْقَا (٢)
ويمسك ظافر الحداد بواحدة من حبات التين المصري ويصفها بقوله .

جَاءَ بِالْوَزْرِ أَخْضَرَ أَصْفَرُهُ مَلُّ الْيَدِ
كَأَنَّمَا قَلْبُوه مِنْ تَوَامٍ وَمُفْرَدِ
جَوَاهِرُ لَكُنْمَا الْ أَصْدَافُ مِنْ زَبْرَجْدِ (٣)

ويتناول واحدة من الكمثرى ويقضمها فيحس بلذة طعمها ورائحتها ويقرن بين قضمها
وعض النهود وتقبيلها :

لِلَّهِ وَأَفِرُّ كَمْثَرِي نَكَرْتُ بِهِ مَا كُنْتُ أَعْبُدُ فِي أَيَّامِي الْأَوَّلِ
لَمْ أُنْبِئِهِ لَفْسِي إِلَّا وَأَوْهَمَهُ مِنَ النَّهْودِ لَنَيْذِ الْعَضِّ بِالْقُبْلِ

(١) الخريدة ، ج ٢ ، ص ١٦ ، ص ٥٠

(٢) ظافر الحداد ، شاعر مصري من العصر الفاطمي ، د حسين نصار ، ص ٢٥

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٥ ، ص ١٢٦ .

قد نذقت من طعمه ما أكادُ يبلغُ بسِي
ماذقتُ من رشفِ محبوبٍ على عجلٍ
يحكى قواريرَ ماءِ الوردِ خالطه
فيها مع الزعفرانِ المسكُ بالعسلِ (١)

ويصف ابن حيدرة العقيلي العنب فيقول :

أمهاتُ الثمارِ بينَ الروابي
تانهياتُ بلبسِ خضرِ الثيابِ
وينباتُ الكرومُ تجلى بما قد
صاغه الماءُ من عقودِ الحبابِ (٢)

وكان الظرفاء يتبادلون الهدايا بالفواكه، فالشاعرة المصرية تقية الصورية أرسلت (توتاً) إلى أحد الأدباء فبعث إليها شاكرًا مادحا :

وتوتُ أتانا ملوّه في احمراره
كدمعى على الاحبابِ حين ترحلوا
هديةً من فاقتُ جمالاً وفطنةً
وأبهى من البدرِ المنيرِ وأجملُ
فلا عدمتُ نفسى تفضلها الذى
يقصرُ وصفى عن مداهِ ويعدلُ (٣)

وقد استحسّن النوق المصرى فى تلك العصور من البطيخ ثقل وزنه وبرودته، فالشاعر خفيف الظل قمر النولة بن داوس المصرى يقول

عن نفسه :

فقدوتُ كالبطيخِ لا حلواً
بل التشبيهُ يحكى نائماً أوقاعداً
لا يحمدُ الوصافُ من أوصافه
مالم يكنْ خشناً ثقيلاً بارداً (٤)

واستعاض بعض المصريين بلذة الشراب لذة القطايف التى ينتشر تناولها بين الناس فى شهر رمضان، ولما كان هذا الشهر مكرماً يستحى فيه كثير من الناس تناول الخمر فلا بأس من أن يستعوضوا بها القطايف :

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٥ ، ص ١٢٦ .

(٢) فى أدب مصر الفاطمية ، د محمد كامل حسين ، ص ٢٩٢ .

(٣) ، (٤) الخريدة، ج ٢ ، ص ٢٢٢ . ٢٢٠ .

أهلاً بشهرٍ غداً فيه لنا خلفُ
أكلُ القطايفِ عن شربِ ابنة العنبرِ
وافى المصياُ فوافقتنا قطائفهُ
كما تسنمتُ الكتبانَ عن كتيبِ (١)

وقد تأملها الشاعر متراصة ملفوفة وبعضها مقلية، يسيل اللعاب ويسد رفق الجائع فهي ملفوفة كأنها أغشية بيضاء كالفضة، فإذا قليت احمرت، وكان الأغشية البيضاء نقشت عليها تعاويد مذهبية :

من كلِّ ملفوفةٍ بيضٍ الى أخرِ
حمرٍ من القلى تشقى جنة السغبِ
كانهن حروذ ذات أغشبيةٍ
من قصةٍ وتعاويدٍ من الذهبِ (٢)

ويدعو أحد الشعراء للكثافة بالهناء، ويلعن أيام المخلل ويشتاق هبوب نسيم القطائف في السحور، ويعتذر لزوجته عن قصر ذات اليد بأن الحلوى المنسوبة إلى القاهرة ليست في مصر :

سقى الله أكتاف الكثافة بالقطرِ
وجاداً عليها سكرٌ دائمٌ النذرُ
وتباً لأوقات المخلل إنها
تمرُّ بلانفعم وتُحسبُ من عُمرى
أهيمُ غراماً كلُّما ذُكر الحمى
وليس الحمى إلا العطارة بالسمرِ
وأشتاق إن هبَّت نسيمُ قطائفِ السحورِ
سحيراً وهى عاطرةٌ النشْرِ
ولى زوجةٌ إن تشتهى قاهريةً
أقول لها : ما القاهريةُ فى مصرِ (٣)

الدور :

كانت الدور المصرية بينة الفروق تبعا لاختلاف الطبقات الاجتماعية كما هي عليه الآن فى شتى الأقطار يحدثنا "الأدقوى" عن الدور فى مدينة قوص فيقول "وبها قباب بأعلى دورها، قالوا: إن من ملك عشر ألاف دينار يجعل له قبة فى داره (٤) وبينما كانت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء زاخرة بالتصاوير والنحف والفسيلات كانت بيوت الفقراء عامرة بالحشرات والقانورات، فقصور فيها من الحسن ما يقصر عن مثله الوجود:

(١) الخريدة ، ج ١ ، ص ٦٢ ، ٦٣

(٢) المرجع السابق :، ص ٦٢ ، ٦٣ . جنة السغب : شدة الجوع والجنون .

(٣) حسن المحاصرة ، السيوطى ، ج ١ ، ص ٥٦٨ .

(٤) الطالع السعيد ، ص ١٣ .

فبيك من الحسن كل معنى يقصر عن مثله الوجوه
وقد أبدع عمارة اليمنى فى وصف قصور الخلفاء والأمراء وما فيها من مرمر ونافورات
ولوحات (١) .

ويشير انتباه ظافر الحداد مارآه فى قصر أحد حكام الإسكندرية، إذ وجد غزالا
مستأنسا يربض ويجعل رأسه فى حجر الأمير فيتقنى بهذه الأبيات :

عجبت لجرأة هذا الغزال وأمر تخطى له واعتمد
وأعجب به إذ أتى جاثماً فكيف أطمأن وأنت الأسد ؟ (٢)

وكان بعض المترفين يزينون مداخل قصورهم وحدائقهم بوضع سرج على الأشجار أو
النخيل تضىء بالليل كما تفعل اليوم فى بعض الأماكن العامة، يصف (ابن قلاقر) نخلة عليها
زينة من أنوار السراج كالذى يتخذها المترفون اليوم فى أيام الحفلات الخاصة :

ما عهدنا النخل لولا هذه باساقات بثمار الذهب
فطل الغيث لها من فضة فهى فى قنواتها من ذهب
تلعب السرج على حافاتهما وتحاكى أنملى المرتعب
ولقد أحسبها ألسنة هزها للسكر خمرة الطرب (٣)

وفى بيت من بيوت عامة الناس يلتقط ظافر الحداد هذا المنظر الذى كونه من البق
والبراغيث والعنكبوت :

وللبق فيها والبراغيث خلطة كبزير قطون ذر فى حب سُماق*
إذا ما أرانين البعوض تجاوبت لنا وقعوا بالرقص إيقاع حذاق (٤)

(١) انظر هذا الكتاب ، ص ٦١٠ . وانظر وصف ابن قلاقر لقصر بنى خليف بالإسكندرية ، بدائع البدائع لابن
ظافر ، ص ١٧٥ .

(٢) أ - ظافر الحداد ، د . حسين نصار ، ص ٢٩ .
ب - الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص ، حسن إبراهيم حسن ، القاهرة ١٩٣٢ ،
ص ١٦٨ .

(٣) فى أدب مصر الفاطمية ، د . محمد كامل حسين ، ص ٢٩٩ .
* القطون حب من الحبوب التى تطبخ والسماق جنس أشجار تستعمل بثوره تابلوا وأوراقه فى الدبغ
(٤) ظافر الحداد ، شاعر مصرى من العصر الفاطمى ؛ د . حسين نصار ، ص ١٣١ .

ولعل ظافرا نزل في أحد الفنادق ويات في حجرة صغيرة رافقة فيها عدد كبير من
النزلاء فضاق بهم وضاقوا به :

وحجرة من عدد القبور بت بها للقبور الضروري
في ليلة مسرفة الحرور كأرؤس الخِرْقَانِ في التُّور
أو كالبِزَاةِ الشُّهْبِ والصُّقُورِ تفعلُ في الأوجهِ والظُّهورِ
فعلُ رماحِ الخطِّ في النُّحُورِ أصواتُها في الحَالِكِ الديجُورِ
تشبهُ ما صاحَ من النَّاعُورِ فلمْ نزلْ في الويلِ والثُّبورِ (١)

الحمامات

يبين أن الحمامات التي عرفتھا مصر الإسلامية كانت أصغر حجماً من الحمامات التي
عرفتھا من قبل ، فقد أطلق المصريون على الحمام الذي أنشأه عمرو بن العاص حمام لغار (٢)
على طريقة المصريين في استخدام النكتة في التسمية . ورسم ظافر الحداد للحمامات في مصر
الفاطمية عدة صور تعكس لنا ما كان يحبه المصريون فيها ، وما كانوا يكرهونه منها ، وما
إعتادوه في تشييدها ، وألقوه عند دخولها فقد عنى المصريون في ذلك العهد بتشديد الحمامات
الزائفة التي قال عنها المقدسي : إلى حماماته المنتهى .. ولعل أجمع بيت لما أحبه ظافر في
الحمامات قوله :

روضة العين ، لذة العقل والحسن ، جلاء القلوب والأجسام

قلم يمدح حماماً إلا جعله روضة ، بل جنة . بعض الأحيان ، تجتمع الميزات فيها
والمسرات :

وروضة في هجير وجسنة في سمير
خصت بكل نعيم ولذة وسرور

كما وصف زخارفها وحياضها بالصفاء وتعدد الألوان والزخرفة :

(١) ظافر الحداد ، شاعر مصري من العصر الفاطمي . د . حسين نصار ، ص ٢٦٦ .

(٢) حسن المحاضرة ، للسيوطي ، ج ١ ، ص ١٢٥ .

راقبت حياضاً ، فاقبل القذى فيها كشمسٍ تحت غيمٍ رقيقٍ
 خُصتُ بالوانِ الرُخامِ الذى له بها كلُّ طرازٍ دقيقٍ (١)
 ولم يكن ظافر وحده هو الذى أحسُّ بمسايءِ بعض الحمامات فى ذلك العصر فالشاعر
 التاجى المصرى يشاركه الإحساس نفسه ويقول :

حمامنا هذا أشدُّ ضرورةً ممن يحلُّ به إلى حمامٍ
 تبيضُ أبدانُ الوردى فى غيرِهِ ويُعيرُها هذا ثيابَ سخامٍ
 قد كتُّ من سامٍ فحين دخلتُهُ لشقاءِ جدى رننى من حمامٍ (٢)
 ويصف شاعر آخر الحمامات بالقذارة والظلمة والبرودة ، وقد أخطأوا فى تسميته حماماً
 وكان من الأولى أن يسمى حماماً بالكسر :

حمامنا هذه حمامٌ وإنَّما حُرِّفَ الكلامُ
 تُجمعُ فى أوصافِها ثلاثُ البردِ والنكتِ والظلامِ (٣)

وسائل المواصلات

استخدم المصريون وسائل المواصلات المعروفة فى العصور الوسطى وهى النواب
 والبحر ، كما استخدموا النيل فى مواصلاتهم الداخلية . وأهم وسائل المواصلات وأسرعها
 الخيل ، وللخيل غايتان : فهى عدة القتال كما يصورها طلائع الأمري . بقوله :

جنائبٌ إن قبيت فليسدن وإن عمدت بأبطالها فهى الصبا والجنائبُ
 أثارت باكتافِ المصلى عجاجاً بجت وبت للبيض منها الكواكبُ (٤)
 ويصفها « ابن الضيف » بسرعة العدو وتحديد الهدف فيقول :

كم سابع أعذته فوجيته عند الكريهة وهو نسرٌ طائرُ
 لم يرم قط بطرفه فى غايةٍ إلا وسابقه إليها الحافرُ (٥)

(١) ظافر الحداد . د . حسين نصار ص ١٢٧ وما بعدها .

(٢) الخريدة ، ج ٢ ص ١٠٢ .

(٣) الخريدة ، ج ٢ ص ٧ .

(٤) ، (٥) فى أدب مصر الفاطمية ، د . محمد كامل حسين ، ص ٢٠٠ .

وهي أيضاً وسيلة السفر تسير على مهل طوراً وتعدي خفاقاً طوراً آخر وهذا أحد الشعراء يطلب من ممدوحه أن يعينه على الوصول إليه ويهديه فرساً حدد له سماته في الأبيات التالية :

وأعن على سفري إليك بأجرٍ طارٍ يطيقُ بجريه ميدانه
جدلانَ ينفضُ مذرويه كما مشى للسكّر طافحَ سلسل نشوانه
يعود على مهلٍ فتحسبُ أنه بازٍ طوى بُعدَ المدى طيرانه
ويروحُ يومَ السبقِ مجريه على ثقةً بأن له يحاز رهانته
والنفسُ تُوقِنُ أنني سأعودُ عن هذا المقامِ وفي يدي عتانه (١)

وكما استخدم المصريون الوسائل البرية فإنهم استخدموا كذلك الوسائل البحرية والنهرية. ويبدو أن ركوب البحر أو النهر كان محفوظاً بالخاطر مما جعل كثيراً من الشعراء يعبرون عن خوفهم من ارتياد هذا الطريق (٢).

الندوات الأدبية :

كانت الأديرة والمنتزهات العامة ملتقى الأبياء والشعراء بمصر منذ زمن الطولونيين وفي حكم الإخشيديين والفاطميين ، ولكن هذه الندوات ضعف سوقها أيام الأيوبيين ، وذلك لأنهم لم يشجعوا هذا النوع من اللهو ، فاتجه الأدياء إلى أماكن أخرى يتناشون فيها الشعر ويتناطحون البدائة ويتناولون بالنقد بعض ما يقولون (٣).

وقد حدثنا ابن خلكان عن هذه الملتقيات الأدبية في ترجمته للشاعر ابن سناء الملك الذي عاصر مجموعة من الشعراء المجيدين وكانت لهم مجالس تجرى بينهم فيها مفاكهاة ومحاورات يروق سماعها ويخل في ذلك الوقت إلى مصر شرف الدين بن عنين فاحتفلوا به وعملوا له دعوات وكانوا يجتمعون على أرغد عيش (٤).

(١) الخريدة ، ج ٢ ، ص ٥١ .

(٢) راجع هذا الكتاب ، ص ١٢٧ .

(٣) الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي ، محمود مصطفى ، ص ٢٨٠ .

(٤) وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٨٩ .

ونقل لنا "ابن شاکر" مجلسا لبعض شعراء مصر الأيوبيين كان فى مسجد من ليالى رمضان، وعندما وقد فانوس السحور اقترح بعض الحاضرين على الأديب أبى شجاع يوسف المنبؤذ بالنعجة أن يصنع فيه شعرا وإنما طلب منه إظهارا لعجزه فصنع وأنشد .

ونجم من الفانوس يشرق ضوءه ولكنّه نون الكواكب لا يسرى
ولم أر نجماً قط قبل طلوعه إذا غابَ ينهى الصائمين عن الفطر
قال على بن ظافر فانتدبت له من بين الجماعة وقلت له : هذا التعجب لا يصح لأنا قد رأينا نجوما لا تدخل تحت الحصر ولا تحصى بالعد إذا غابت تنهى الصائمين عن الفطر وهى نجوم الصباح فأسرف الجماعة فى تقريره فصنع أيضا وأنشد :

هذا لواء سحور يستضاء به وعسكر الشهب فى الظلماء جرأرأ
والصائمون جميعاً يهتدون به كأنه علم فى وسطه نار
وُصنع الفقيه القلعي :

وكوكب من ضرام الزئبد مطلعُه تسرى النجوم ولايسرى إذا رقبا
يراقب الصبح خوفاً أن يفاجئه فإن بدا طالما فى أفقه غريا
كأنه عاشق وأفسر على شرفه يرعى الحبيب فإن لاح الرقيب خبا

ثم ذكر على بن ظافر أنه صنع وأن غيره صنع فى كلام طويل نكره « ابن شاکر » (١).

الأعياد الوطنية والدينية

أمدنا الأدب العربى بسجل حافل عن أعياد مصر القومية والدينية التى كانت تحتل بها حكومة وشعبا فى عصر ازدهارها الألبى وهى أعياد مختلفة المصادر متعددة النزعات تجمعت من جهات بعيدة أو قريبة، فبعضها يرجع إلى العصور الفرعونية كالاحتفال بوفاء النيل، وبعضها عرفته مصر من خلال احتكاكها بغيرها من الشعوب كعيد النيروز الذى أخذته عن

(١) فوات الوفيات ، محمد بن شاکر بن أحمد الكلبى ج ٢ ص ١٠٨ القاهرة ١٩٤٦ م .

الفرس وأمدتها المسيحية بأعيادها كعيد رأس العام وعيد القطاس، كما أمدها الإسلام بعيدي الفطر والأضحى، واستحدثت الشيعة في مصر أعيادا خاصة كيوم عاشوراء.

وأصبحت هذه الأعياد مظهرا من مظاهر مصر الاجتماعية ومجالا يستظهر فيه الحكام قوتهم تمكينا لنفوذهم، ومسرحا يتبارى فيه الكتاب بأقلامهم فينشئون الرسائل مهنتين ويزفون بها إلى سائر الأمصار مبدعين في وصف ذلك اليوم وما جرى فيه. وكما كانت مهرجانا شعريا تلهج فيه ألسنة الشعراء بوصف اليوم ومدح السلطان، ويتلقى فيه المبدعون جوائزهم وعطاياهم^(١).

وقد أشار (عمارة اليمنى) إلى كثرة الأعياد الوطنية والدينية في مصر الفاطمية في قصيدة رثى بها دولة الفواطم - فقال :

أُبْكِي عَلَى مَا تَرَأَتْ مِنْ مَكَارِمِكُمْ	حَالَ الزَّمَانِ عَلَيْهَا وَهِيَ لَمْ تَحْلِ
دَارُ الضِّيَافَةِ كَانَتْ أَنْسَ وَأَفْدِكُمْ	وَالْيَوْمَ أَوْحَشُ مِنْ رَسْمٍ وَمِنْ طَلِّ
وَفِطْرَةُ الصُّومِ إِذْ أَضْحَتْ مَكَارِمِكُمْ	تَشْكُو مِنَ الدَّهْرِ حَيْفًا غَيْرَ مُحْتَمَلِ
وَكِسْوَةُ النَّاسِ فِي الْفِصْلَيْنِ قَدْ دَرَسَتْ	وَرِثٌ مِنْهَا جَدِيدٌ عِنْدَهُمْ وَبَلَى
وَمَوْسَمٌ كَانَ فِي يَوْمِ الْخُلُجِ لَكُمْ	يَأْسَى تَجْمُلُكُمْ فِيهِ عَلَى الْجَمَلِ
وَأَوَّلُ الْعَامِ وَالْعِيدَيْنِ كَمْ لَكُمْ	فِيهِنَّ مِنْ بَيْلِ جُودَيْسٍ بِالْوَشَلِ
وَالْأَرْضُ تَهْتَزُّ فِي يَوْمِ الْغَدِيرِ كَمَا	يَهْتَزُّ مَا بَيْنَ قَصْرِكُمْ مِنَ الْأَسَلِ
وَالْخَيْلُ تَعْرَضُ فِي وَشْرِ وَفِي شَيْبَةِ	مِثْلَ الْعَرَائِسِ فِي حَلِي وَفِي حُلِّ ^(٢)

الاحتفال بوفاء النيل :

لعل أقدم أعياد مصر القومية هو عيد وفاء النيل الذي علم المصريين أن يستقبلوه بالفرحة والبشرى في أيام معلومة من العام، فيخرج السلطان والأمراء يسيرون في موكب من

(١) ذكر المقرئ في خطه أعياد مصر الفاطمية تفصيلا انظر خطط المقرئ، ج ٢، ص ٢٨٤ .

(٢) خطط المقرئ، ج ٢، ص ٢٩٢ .

الجنود ويتوجهون إلى باب اللوق ويلعبون الكرة ويحتشد الناس من كل فج يأتون ويشربون ويمرحون ويشاركون في مختلف الألعاب احتفاءً بوفاء النيل. ويبدع كتاب الديوان في إنشاء رسائل يزفونها إلى مختلف أقطار الخلافة تخبرهم ببلوغ الماء وارتفاعه واحتفاءً السلطان وجنوده وشعبه، وتدعوهم إلى مشاركة مصر، فرحتها بإقامة مهرجانات مماثلة في كل إقليم وقطر لتعم البهجة سائر الناس.

وهذه رسالة موجهة من الخليفة الفاطمي إلى واليه على "طرابلس" في تلك المناسبة : ولما كان يوم كذا ركبنا إلى الميدان السعيد في أتم وقت أخذ من السعد بمجموعة وأظهر في أفق العساكر من وجهنا الشريف البدر عند طلوعه، ولم نبرح يومنا المذكور في عطاء نجيده، وإنعام نفيده، وإطلاق نبيدته ونعيده، والأولياء بين أيدينا الشريفة يمرحون، وفي بحار كرمنا المنيف يسبحون، وفي ميدان تأييدنا المطيف يسيحون والكرات كالشمس تجفح تارة وتغيب، وتخشى من وقع الصوالة فتقابلها بوجه مصفر مريب، ثم عننا إلى القلعة المنصورة على أتم حال، وأسعد طالع بلغ الأنام الأمان والأمال والعساكر بخدمتنا الشريفة محققون، ومماليكنا بعمود ولائنا مطوقون، والرعايا قد ألبسها السرور أثوابا، وفتح لها من الابتهاج أبوابا، وقد أثرتنا إعلام الجتاب بذلك ليأخذ حظه من هذه المسرة والبشرى، ويشترك هو والأنام في هذه النعمة الكبرى، ومرسومنا للجناب أن يتقدم بالركوب بمن عنده من الأمراء في ميدان طرابلس المحروسة ويلعب بالكرة على جاري العادة في ذلك ليساهم أولياء نولتنا القاهرة في ذلك ويسلك من طرقهم الجميلة أجمل المسالك (١) .

ويرتبط بفرحة الوفاء للنيل احتفال آخر هو فتح الخليج وربما كان الاحتفالان في يومين مختلفين في بعض العصور ثم صار الاحتفال بهما احتفالا واحدا فيما بعد (٢).

ومهما يكن من أمر فإن الأدب العربي شعره ونثره سجل لنا مباحج الشعب واحتفاء السلطان ومساهمة الأديباء والشعراء في الاحتفال بهذا اليوم.

يخاطب "عمارة اليمنى" الخليفة العاضد مهنتا ومانحا بيوم الخليج فيفضله على سائر

الأعياد واصفا الماء أيام الفيضان وقد تكرر لونه، ثم يقارن بين عطاء النيل وعطاء مملوحيه :

(١) صبح الأمل ج ٨ ص ٣٣٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣٥ .

شرفنت أمير المؤمنين مواسمُ
وأجلها يومَ الخليجِ فإنه
واقاك فيه النّيلُ وهو من الحيا
لولا تعثرُهُ بأنديالِ الثرى
لو لم تغبرُ بالندى فى وجهه
ولقد عدمتاه فنبتت نيابةً
أضحت تؤدخُ باسمِك وتسطرُ
من بينها يومُ أغرُ مشهُرُ
خجلُ يقدّمُ رجله ويؤخرُ
ما كان مذوراً عليه العثيرُ
ما لاح قطُّ عليه لونُ أغبرُ
عزُّ الغنى بها وأثرى المفسرُ^(١)

وتطير الرسائل حاملة آيات البشرى مفصلة ماجاء فى ذلك اليوم، مطمئنة سائر الأقاليم
بسلامة الموكب السلطانى ونجاح الاحتفال القومى.

وهذه رسالة موفدة من مصر إلى نواب السلطة بالممالك الشامية :

ولما كان يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا من شهور القبط بادرت إلى الوفاء شيمه ،
وأغنت أمواجه عن منة السحب فنمت عندها ديمه ، وزار البلاد منه أجل ضيف فرشت له صفحة
خدها للقرى فعمها كرمه، وبلغ من الأذرع ستة عشر ذراعاً ورفع لواءه بالمزيد ونشر وجاء
بأنواع البشر، فرسنا بتعليق ستر مقياسه، وتخليقه وتوضيع أنفاسه، وفى صبيحة اليوم
المنكور كسر سد خليجه على العادة، وبلغ الأنام أقصى الإرادة، وتياشر بذلك العام والخاص،
وأعلنت الألسنة بحمد ربها بالإخلاص، وسطرها وهو بفضل الله ورحمته متتابع المزيد، بسيط
بحره المديد، ومتجدد النمو فى كل يوم من أيام الزيادة جديد^(٢) .

وعقب مراسيم الاحتفال بفتح الخليج يجلس السلطان فى مكان على النيل ويلتف من
حوله عليه القوم ويتبارى الشعراء فى ذلك الميدان فيدلى كل بدلوه ويفوز أقدرهم بالجوائز
والهبات. وهذه صورة لواحد من هذه المهرجانات :

توافد الشعراء على مجلس الخليفة الفاطمى فى تلك المناسبة. فتقدم شاعر يدعى (ابن

جبر) وأنشد.

(١) ديوان عمارة اليعنى ص ٢٢ ، ٢٢٤ .

(٢) صبح الاعشى . ج ٨ ، ص ٢٢١ .

فُتِحَ الْخَلِيجُ فَسَالَ مِنْهُ الْمَاءُ وَعَلَسَتْ عَلَيْهِ الرَّأْيَةُ الْبِيضَاءُ
فَصَفَّتْ مَوَارِدَهُ لَنَا فَكَانَتْهُ كَفُ الْإِمَامِ فَعَرَفْنَا الْإِعْطَاءُ

فانتقد الناس قوله : فسال منه الماء وقالوا : أى شيء يخرج من البحر غير الماء ثم تقدم شاعر يقال له مسعود الدولة ابن جرير وأنشد :

مَازَالَ هَذَا السُّدُّ يَنْظُرُ فَتَحَهُ إِذَنْ الْخَلِيفَةُ بِالنُّوَالِ الْمَرْمَلِ
حَتَّى إِذَا بَرَزَ الْإِمَامُ بِوَجْهِهِ وَسَطًا عَلَيْهِ كُلُّ حَامِلٍ مَعُولٍ

فانتقد الناس عليه البيت الثانى، وقالوا : أهلك وجه الإمام بسطوات المعاول عليه، ومع أنه قصد فتح السد بالمعاول، ولكنه لشؤم طالعه خلط بين الضمائر، ثم تقدم شاعر ثالث يقال له كافي الدولة أبو العباس وقال :

لِمَنْ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ فِي ذَا الْمَشْهَدِ لِلنَّيْلِ أَمْ لِكَ يَا بَنَ بْنَتِ مُحَمَّدٍ
أَمْ لِاجْتِمَاعِكِ مَعَا فِي مَوْطِنٍ وَافِيْتِمَا فِيهِ لِأَصْدَقِ مَوْعِدِ (١)
فقال إعجاب الحاضرين وهبات الخليفة :

وقد أخذ كل شاعر وكاتب بنصيب في وصف النيل والاحتفاء بفتح الخليج فابن الساعاتى " يتأمل كسر الخليج ويصف يومه بأنه يوم مشهود فيه ما يرى وما يسمع ويشبه انحدار الماء إثر كسره بانحدار الدموع التى تفيض من نوى القلوب المحطمة :

إِنْ يَوْمَ الْخَلِيجِ يَوْمٌ مِنْ الْحَسَنِ بَدِيْعُ الْمَرْثَى وَالْمَسْمُوعِ
كَمْ لَيْتَ مِنْ لَيْتٍ غَابَ صَنْوَلٍ وَمَهْمَاةٍ مِثْلِ الْفَزَالِ الْمَرْوَعِ
وَعَلَى السُّدِّ عَزَّةٌ قَبْلَ أَنْ تَمْلِكَكَ ذَلَّةُ الْمَحَبِّ الْخَضُوعِ
كَسُّرُوا جِسْرَهُ هُنَاكَ فَحَاكِسَى كَسَّرَ قَلْبٍ يَتَلَوُهُ فَيُخْضُ دَمُوعِ (٢)

(١) المفصل فى تاريخ الأندلس العربى ، أحمد أمين وآخرين ، ج ٢ ، ص ٣٢ .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٢٨٨ .

وللقاضى القاضل رسائل متعددة فى وفاة النيل كتبها عن السلطان صلاح الدين الأيوبي
منها تلك الرسالة :

نعم الله سبحانه وتعالى من أضونها بزوغا، وأخفاها سبوغا، وأصفاها ينبوعا،
وأسناها منقوعا، وأمدها بحر مواهب، وأختمها حسن عواقب النعمة بالنيل المصرى الذى يبسط
الأمال ويقبضها مده وجزره، ويرمى النبات حجره ويحمى مطلقه الحيوان، ويجنى ثمرات الأرض
صنوانا وغير صنوان، وينشر مطوى حريرها وينشر مواتها، ويوضح معنى قوله تعالى : وبارك
فيها وقدر فيها أقواتها^(١).

الاحتفال برأس السنة :

احتفلت مصر بأول المحرم بداية العام الهجرى وكان الاحتفال رسميا وشعبيا وفى
الأدب العربى عدة رسائل ديوانية تشير إلى احتفال المصريين بهذه المناسبة، ومنها رسالة نقلها
القلقشندي من مذكرة أبى الفضل الصورى جاء فيها :

الحمد لله الذى لم يزل يولى إحسانا وإنعاما، وإذا أبلى عبيده عاما أجدهم يفضله
عاما، فقد أمدكم معاشر (الخلفاء) كرما ومنا، وأتاكم من جوده أكثر مما يتمنى ومنحكم من
عطائه ما يوفى على ما أردتموه، (وسخر لكم الليل والنهار وأتاكم من كل ما سألتموه) وقد
استقبلتم هذه السنة السعيدة، وإذا عملتم بالطاعة كنتم مستنجزين من ثواب الله الأغراض
البعيدة.

وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الذى غدت الجنة مدخرة لمن عمل بهداه لما سمعه ومهيأة
لمن آمن به واتبع الفود الذى أنزل معه، وبين بإرشاده ماتجرى أمور السنين عليه فى العدد
والحساب، وتسخر ماكانت الجاهلية (تفعله) فيه زيادة فى الكفر وضللا عن الصواب، وعلى أخيه
وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى كمل الله الإسلام بإمامته : وضاعف الأجر لأهل
ولايته، ومنح شيعته مقبول شفاعته. وعلى الأئمة من نريتهما خلقاء الله على خلقه، والقائمين
بواجب حقه لى والعاملين فى سياسة الكافة بما يرضيه سبحانه. ويضمن غفرانه ورضوانه،

(١) حسن المحاضرة ، للسيوطى ، ج ٢ ص ٢٦٦ .

وسلم عليهم أجمعين، سلاما باقيا إلى يوم الدين. وإن أحق النعم بنشر الذكر، وأرحبها للوصف وأعمال الفكر، نعمة رفعت الشك وأزالت اللبس، ووضعت ضيقها لأولى الألياب وضوح الشمس، واشتراك الناس فتضاعفت الفائدة لديهم، وانتفعوا بذلك في تواريخهم ومعاملاتهم وما لهم وما عليهم، وتلك (هي) المعرفة باليوم الذي هو مطلع السنة وأولها، ومبدؤها ومستقبلها^(١).

الاحتفال بعيد الأضحى :

ومن أعياد مصر الرسمية والدينية عيد الأضحى. وكان الخليفة يخرج في موكب رسمي لأداء الصلاة، ويبعث بالتهانى إلى سائر الأقطار من ذلك ما كتبه ابن الصيرفى فى بعض هذه المناسبات.

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد النحر سنة كذا وكذا : وهو يوم أظهر الله فيه قوة الدولة واقتدارها، وأوجب فيه - رغبة ورهبة - مسارعة النفوس المخالفة إلى الطاعة وابتدارها، وذلك أن عساكر أمير المؤمنين توجهت إلى قصوره الزاهرة عند انفجار الفجر، وحافظت على ماتحرزه من كريم الثواب وجزيل الأجر، واستنزلت الرحمة برؤية إمام الأمة، وأعدت الإخلاص فى خدمته من أوفى الحرمات وأقوى الأئمة، وأقامت إلى أن برز أمير المؤمنين والأنوار الساطعة طواله، ومهابته تمنع كل طرف من استقصاء تأمله وتدافعه وقصد المصلى فى كتابه لحيى، ومواقب للتعظيم مستوجبة، وعزة تتبين فى الشمائل.. والصفحات، وقوة يشهد بطيب وصفها أرج النفحات، (٢) .

ويستلهم الشاعر "أبو الحسن بن حيدرة العقيلي" شعائر هذا العيد فى مجونه :

قُمْ فَانْحَرِ الرَّاحَ يَوْمَ النُّحْرِ بِالماءِ ولا تَضْحَجْ ضَحْجاً إِلَّا بِصَهْبَاءِ
وَعَجَّ عَلَى مَكَّةَ الرُّوحَاءِ مَبْتَكراً فَطُفْ بِهَا حَوْلَ رِكنِ العُودِ والنَّاءِ^(٣)

(١) ، (٢) صبح الأعياد ، ج ٨ ، ص ٢١٥ ، ٢٢٤ ، ٣٢٥ .

(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر ، د . ط . ٨ القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٠ ، ص ٤٨٦ .

الاحتفال بشهر رمضان :

وإذا أقبل شهر رمضان تبادل الناس الزيارات وأخذ الشعراء يذفون التهئة إلى كبار الشخصيات فى الدولة، من ذلك ما كتبه ظافر الحداد إلى قاضى الإسكندرية الأفضل بن مكين الله بن حديد فى هذه المناسبة مهنتا :

شَهْرُ الصَّيَامِ بِكَ الْمَهْنَةُ إِذْ كُنَّ يَشْبَهُ مِنْكَ فَنَمًا
مَا سَارَ حَوْلًا كَامِلًا إِلَّا لِيَسْرِقَ مِنْكَ مَعْنِي
فَإِذَا مَدَحْنَاكَ احْتَمَرُ نَا مَا نَقُولُ وَإِنْ أَجَدْنَا (١)

وتخرج المكاتبات من دار الخلافة المصرية واصفة الاحتفال برؤية هلال رمضان وثبوت رؤيته، وتهنىء المسلمين بصوم الشهر من ذلك ما كتبه "ابن الصيرفى" :

"الحمد لله كالىء خلقه فى اليقظة والمنام، والكافل لهم بمضاعفة الأجر فى شهر الصيام، وصلى الله على سيدنا محمد الذى بعثه رحمة للأنام، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب، أخلص ولى، وأشرف وصى وأفضل إمام، وعلى الأئمة من نريتهما الداعين الى دار السلام، صلاة دائمة الاتصال، مستمرة فى الغدو والأصال، وإن من المسرة التى تتهدى : والنعمة الشاملة للخلق جميعا وفرادى مامن الله به من ظهور مولانا وسيدنا الإمام فلان، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين يوم كذا غرة شهر رمضان من شهر رمضان من سنة كذا، وإعلاما بلؤل الشهر وإفتتاحه، وإن الصيام الأول من فجره الأول قبل تنفس صباحه، وتوجهه إلى ظاهر المعزية القاهرة المحروسة فى عساكره المظفرة وجنوده، وأليائه وأنصاره وعبيده، والمنة برؤيته قد تساوى فيها الكافة، وملائكة الله مطيفة حافة، وعودة إلى قصوره الزاهرة، وقد شمل المستظلين بأقيائه بسعائتى الدنيا والآخرة" (٢).

وربما جاء رمضان يوم الاحتفال بفتح الخليج وهو يوم الشراب واللهو والمتع والطرب فماذا يصنع المصريون وهم ميالون إلى الأخذ بحظهم من المتع وفى الوقت نفسه حريصون على

(١) ظافر الحداد ، د . حسين نصار ، ص ٢٨ .

(٢) صبيح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٢١٦ .

احترام الموروث من العادات والتقاليد وحب الدين واحترامه، يحدثنا المقرئى عن موقف كهذا فيقول :

”كان يوم كسر الخليج من أيام القاهرة وأعيادها يشترك فيه السلطان والأمراء والناس أجمعين : وفى تلك السنة اشتد إفراط الناس وغلبيت المجاهرة بالمنكرات والإعلان بالفواحش ولم يتسلخ رمضان إلا وقد شهد ما لم يشهده رمضان قبله فى الإسلام“ (١) .

ثم يتابع المقرئى وصف ذلك اليوم فيقول : ”ركب العريز وكثر المتفرجون وازبحم القوغاء وحملوا العصى وتراجموا بالحجارة وفلقت أعين وخطفت مناديل وكانت العادة جارية بأن يوقر شهر رمضان من اعتصار الخمر ولا يحدث نفسه أحد بفسخ الحرمة وهتك الستر وفى هذا الشهر غلا سعر الأعتاب لكثرة العصير منها، وفيه كثر اجتماع الرجال والنساء على الخليج لما فتح، وعلى ساحل مصر، وتلوث النيل بمعاص قبيحة“ (٢) .

وربما عكس لنا الشعراء إيثارهم المتعة والشراب على احترام العادات الدينية. وقد تجلى ذلك فى موقف أحد الشعراء المصريين عندما أخذ يهنىء أحد الحكام بحلول شهر رمضان فجعل التهنية فى نظره يوم انسلاخ الشهر والعودة إلى التمتع بالطعام والشراب روى العماد عن الشاعر قمر الدولة أبى طاهر جعفر بن داوس المصرى أنه حضر مجلس مؤتمر الدولة بن صدفة والناس يهنئونه بشهر رمضان فقال قمر الدولة :

لا أهنيك بالصيام لأنسى واثق بالهناء يوم العيد
بل أهنيء بالاكل والشرب والزقن وصوت الغنا وجس العود
لابصوم يجف الكبد حتى يجعل العود وهو مثل العود (٣)

عيد النيروز :

ومن أعياد مصر الوطنية عيد النيروز، وقد ظل هذا العيد بين المصريين منذ أخنوخه عن الفرس حتى كانت الدولة الفاطمية، وفى عصرها تفنن المصريون بالمباهج والمرح بكثرة أعيادهم وتشجيع الخلفاء لهم ومشاركتهم فى كل هذه الأعياد.

(١) السلوك للمقرئى . ج ١ ، ص ١٩٦ ، هامش ص ١٠٩ من المصدر نفسه .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٦ .

(٣) الخريدة ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

وقال (القاضي الفاضل في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة : وجرى الأمر في النوروز على العادة من رش الماء، واستجد فيه هذا العام التراجم بالبيض والتصافح بالإنتطاع وانقطع الناس عن التصرف، ومن ظفر به في الطريق رش بمياه نجسة" (١) .

عيد الغطاس :

ومن أعياد مصر النيتية عيد الغطاس، وهو من أعياد النصارى يشاركون فيه الشاعر تميم المعز لدين الله الفاطمي بأسلوب ساخر فهو يدعهم يقيمون شعائر ذلك اليوم لبعضى إلى ملذاته ويستبدل بالغطاس في الماء الغطاس في "باطية" عامرة بالشراب :

خَلَّ مَنْ يَأْتُمُّ بِالصُّلُ — بَانَ يَفْدُو فِى اخْتِلَاطِ
وَأَغْدُ لِلصَّهْبَاءِ نَسَقًا — هَا وَنَسَقِي وَنَعَاطِي
غَطَسُوا فِى الْمَاءِ جَهْلًا — وَغَطَسْنَا فِى الْبِوَاطِي*
وَشَرِبْنَا مَا عَقَارًا — خَنْدَرِيَسًا بِنَشَاطِ(٢)

كثرة الأعياد وعلاقتها بالشخصية المصرية :

لقد شغلت الأعياد المصرية حيزا غير صغير في الأدب الفاطمي والأيوبي ولاسيما الرسائل الديوانية لكثرتها من جهة، واهتمام الحكام بها من جهة أخرى. ولعل كثرة الأعياد المصرية في تلك المرحلة ترجع إلى الأسباب التالية :

(١) السلوك للمقريزي ج ١ . هامش ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) ديوان تميم المعز لدين الله الفاطمي ، تحقيق محمد حسن الأعظمي ، ص ٢٥٨ . البواطى : جمع باطية : وهى إثناء عظيم من الزجاج يملأ بالشراب ويوضع بين الشاربين يفرغون منه . يقول شهاب الدين النويرى عن عيد الغطاس إنه يكون في الحادى عشر من شهر طويه ، ويقولون إن يحيى بن زكريا وينعتونه بالمعمدان غسل عيسى عليه السلام في بحيرة الأردن ، ويؤمنون أن عيسى عليه السلام لما خرج من الماء اتصل به روح القدس على هيئة حمامة ، والنصارى يغمسون أولادهم فيه ووقته شديد البرد نهاية الأوب ، السفر الأول ، النويرى ، ص ١٩٢ .

أولا : وفرة الموروث والمستحدث : قلمصريين حضارات قديمة ورثت عنها بعض الأعياد، ومن بين حضاراتها الدينية أعياد مسيحية، ثم جاءها الإسلام فلم تمنع سماحتها ولإرحابة صدور المصريين من أن يجمعوا بين الأعياد المسيحية والإسلامية في مصر، ثم أتاها الفاطميون بأيام جديدة فتوسعت لها مصر مكانة بين أعيادها، وهكذا كان البعد الحضارى سببا في وجود كثير من هذه الأعياد.

ثانيا : موقف الحكام : فقد كان الحكام يشجعون ويشاركون لعدة أسباب منها :

١ - التقرب إلى الشعب المصرى : ولاسيما بعد استقلال مصر استقلاللا ذاتيا وماتبع ذلك من محاولة حكامها الاعتماد على شعبها لتدعيم سلطانهم، وقد استلزم هذا التقرب عدم محاربة الشعب فيما تعوده من الاحتفالات الوطنية أو الدينية.

٢ - انتهز الفاطميون فرصة اهتمام المصريين بالأعياد وراحوا يبتشون من خلالها عقاندهم ومبادئهم ممثلة في أيام يقترن في بعضها الاحتفال بالتوسعة والمرح وفي غيرها بإظهار الأسف والحزن كيوم عاشوراء.

٣ - نجح الفاطميون في اجتذاب المصريين إلى أعيادهم بما أحاطوها من مظاهر الإسراف والمبالغة في الزخرف والترف، لأنهم عرفوا حب المصريين لما فيه مبالغة والمبالغة مطلب الفاطميين. لأنها سبيل الغموض والإخفاء، فكان المبالغة لقائف تختفي فيها الشعائر والمبادئ والأهداف.

ثالثا : طبيعة المصريين. وقد أثرت هذه الطبيعة في كثرة الأعياد من عدة زوايا :

١ - فقد اعتلى بعض المسيحيين في الدولة مناصب كبيرة. واهتموا بأعيادهم ولم يجد إخوانهم المصريون من نوى الأصول القبطية غضاضة في مشاركة إخوانهم بأعيادهم المسيحية، ونظر كل منهم إلى بعض الأعياد الموروثة كوفاء النيل أو النيروز على أنها أعياد مشتركة بينهما، ثم أحيا المسلمون أعيادهم الدينية، وهكذا التقى الجميع على الجمع بين هذه الأعياد.

٢ - الطبيعة المصرية مرحة، وكانت هذه الأعياد كما صورها الأدب مهرجانا للمرح واللعب وتناول الأطعمة واقتراف اللذات، وحتى ما كان يسوده الحزن ليس يبعيد

عن هوى الشخصية المصرية فهي شخصية عاطفية واو وليست أو الحزن يمثل جانباً فيها .

٢ - المظهر الجماعى فى الأعياد، وهو مظهر يستهوى المصريين ويندفعون إليه، كما لاحظ الأستاذ العقاد أن بائع الحلوى الذى يفتنى ووزمر ينتهى من بيعها قبل زميله الذى لا يقوم بذلك الأداء.

مظاهر اللهو والمجون

أخذت حياة اللهو والمجون مكاناً بارزاً فى الأدبين الفاطمى والأيوبي، وذلك لانتشارها فى المجتمع المصرى وتعدد مظاهرها .

وكان من العوامل التى ساعدت على وضوحها ظروف الحياة الاجتماعية وتأثير الحروب الصليبية .

وقد صور أدب اللهو والمجون بعض ملامح الشخصية المصرية من خلال عدة مظاهر :

- ١ - الدعوة إلى المتع والملذات .
- ٢ - وصف الخمر ومجالسها .
- ٣ - وصف أماكن اللهو .
- ٤ - القسز بالفلمان .
- ٥ - الفحش فى تصوير العلاقة بالمرأة .
- ٦ - مجالس الحشاشيين .

الدعوة إلى المتع والملذات :

منذ العصور الجاهلية والشعراء هم قادة الناس إلى اقتراف الملذات، وفى العصر العباسى حمل أبو نواس وعصبة الماجنة لواء المجاهرة بهذه الدعوة .

وفى الأدبين الفاطمى والأيوبي نداءات إلى التمتع واللهو ردها الشعراء المصريون فأبى النبيه يدعو إلى الحرص على اغتنام الفرصة للتمتع بالشراب . فالعمر كالكأس يروق أوله ثم يمج آخره :

خذْ مِنْ زَمَانِكَ مَا أَعْطَاكَ مَقْتَنِمَا وَأَنْتَ نَاهٍ لِهَذَا الدَّهْرِ أَمْرُهُ
قَالَعُمُرُ كَالْكَأْسِ تُسْتَحْلَى أَوَائِلُهُ لَكِنَّهُ رَبُّمَا مُجْتٌ أَوْ آخِرُهُ (١)

(١) ديوان ابن النبيه المصرى ، ص ٩٤

ويتمادى ابن النبيه فى دعواه مهونا من شأن الذنوب مهما عظم أمرها :

واجسر على فرص اللذات مُحَقِّراً عظيمَ ذنبك، إن الله غافره (١)

ويعتز أحد الشعراء بأنه ممثل الشريعة النواسية فى مصر، مسئول عن إقامة شعائرها من هيام بالفلمان وتغزل بالحسان وإدمان الدنان :

أنا نائبُ الشرعِ النُواسى دعنى وباطيتى وكاسى

أهوى الغزاةً كاعباً وأهيمُ بالطبى الخماسى

من كلِّ معتدلٍ رشيقٍ القُدِّمِ مشوقٍ خلاسى (٢)

وينادى البهاء زهير صاحبه أن يبكر بالصباح التى وصفها بأنها رائحة كالتسيم، معتقة

لم يفض خاتمها، فقد عتقها المجوسى حتى غدا لها قدر عظيم عنده، وتعبد رهبان الدير حولها، ومع ذلك فهى رخيصة السعر وإن كانت عظيمة القدر والقيمة :

رَقُّ فى الجِوِّ النُسيمُ ففَضُلُ يانديمُ

وكانُ الفجرُ نَهْرُ غرقتُ فيه النجومُ

فاجلُ بالصُّبَّاءِ لُيلاً بقيتُ منه رَسُومُ

واسبقِ الشمسِ بشمسِ لا تُوارىها الغيومُ

قهوةٌ رقتُ فما فى كاسِها الا نـسيمُ

بنتُ كرمٍ لم يَفُزْ قطُّ بها إلا الكريمُ

وعلى طينتها من سالفِ الدفْرِ رِخْتومُ

لم يَزَلْ عندَ المِجْوِ سى لها قدرُ عظيمُ

(١) المرجع السابق، ص ٩٥ .

(٢) الخريدة، ج ٢، ص ٥٧ .

ولها السرابُ في الدَّيْرِ يَصَلِّي وَيَصُومُ
وَقَلِيلُ كُلِّ مَا يَطْلُبُ فِيهَا وَيَسُومُ (١)

وصف الخمر ومجالسها :

والحديث عن الخمر قاسم مشترك بين جميع الشعراء المصريين في هذه الفترة وصفوها
وصفا ينم على تجاربهم الحقيقية معها، وإن كنا نلاحظ تشابها كثيرا بين وصفهم الخمر
ومجالسها مع ما رده أتباع أبي نواس، فابن النبيه يدعوننا الى التبكير بالصبح ويصف لونها
وتغيرها عند امتزاجها بالماء :

قُمْ فاصطَبِحْ مِنْ شَمْسِ كَأْسِكَ وَاغْتَبِقْ بكَوَاكِبِ طَلَعَتْ مِنْ كَأْسَاتِ
صَفْرَاءَ صَافِيَةٍ تَوْقَدُ بَرْدُهَا فَعَجِبْتُ لِلتَّيْرَانِ فِي الْجَنَاتِ
يَنْسُلُ مِنْ قَارِ الظُّرُوفِ حَبَابُهَا وَالسُّدْرُ مُجْتَلِبٌ مِنَ الظُّلَمَاتِ
وتريك خيط الصُّبْحِ مَقْتُولًا إِذَا مَرَقْتَ مِنَ الرَّاوِقِ فِي الطَّاسَاتِ
عِزَاءً وَأَقْعَهَا الْمَزَاجُ أَمَا تَرَى مِنْدِيلَ عِزَّتِهَا بِكَفِّ سُقَاةٍ؟ (٢)

ويتأمل "النقيب أبو المكارم" خمره المعتقة وقد لاح من الدن نورها يسطع
كالشمس قائلًا :

ومحجوبة في الدنُّ قد كانت الألى

قدسياً أعدتها لصرف همومها

يلوح من الكاساتِ ساطعُ نورها

كشمسٍ تبدتْ من فتوقِ غيومها

(١) أ - البهاء زهير . د . عبد الفتاح شلبي ، ص ١٠٢ .

ب - شرح ديوان (بهاء الدين زهير) ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٢) ديوان (ابن النبيه المصري) ، ص ١٢٤ .

ولست ترى إلا شعاعاً وإنما

يدلُّ عليها نعمةٌ من نسيمها^(١)

ويتأمل شاعر آخر حركة احتساء الكأس وعودة امتلائه من يد الساقى فيصور فقاقيعها بعقد قد ارتسم فوق الكأس ثم أخذت صورته تتضائل في قاع الكأس عند احتسائها وكأن صورة العقد وقعت ساجدة، فإذا عادت الكأس إلى الامتلاء تلاشت تلك الفقايع وتبددت الصورة :

وكم ليلٍ جلوتُ الكأسَ فيه وقد نَظَمَ الحَبَابُ له عُقُوداً

ونادمتُنا بهِ صوراً إذا ما احتسأها شاربٌ وقعتْ سَجُوداً

يلبسُها الميرُ لها بروداً فيسلبُ شربها تلك العقوداً^(٢)

وصف أماكن اللهو :

كانت الأديرة مكانا للمتعة والشراب، وما أكثر هذه الأديرة التي تغنى فيها الشعراء المصريون وغيرهم من زمن بعيد^(٣).

يحدثنا تميم بن المعز الفاطمي عن صبواته في دار القصير مع رفاقه طلاب القصف والشراب الذين يطيب له أن يخلع معهم نقاب العذار ليصل متعة الليل بالنهار :

كَمْ بديرِ القُصَيْرِ لى من بكورٍ ورواحٍ على الصُّبَا والعَقَارِ

حيثُ أخلوُ بِمَا أحبُّ من القصفِ قليلُ الوقارِ لستُ أدارى

كَم صَبُوحٍ شَدَدَتْهُ بغبوقٍ وظلامٍ وصلته بنهارٍ

إنما العيشُ أن تروحَ عشياً قاصفاً عازفاً خليعَ العذارِ^(٤)

(١) الخريدة ، ج ٢ ، ص ١٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٣) راجع هذا الكتاب ص ١٠٧ وما بعدها .

(٤) ديوان تميم بن المعز لدين الله تحقيق محمد حسن الأعظمي ، ص ٢٣٥ . ودير القصير على رأس جبل مشرف على النيل قرب حلوان .

وكانت الأييرة منتشرة فى أرجاء مصر. فى أقصى الصعيد كان ديرقنا مرتابا للهو
والملاذات، يقول عنه "ابن جهور" :

يا منزلَ اللّهُوِ بديرقنا قلبى إلى تلك الرّيسى قد حنا
سقيماً لأيامك لنا كنا نعتارُ منك لذّةً وحسنا
أيام لا أنعم عيش منا إذا انتشينا وصحونا عدنا(١)

وما أكثر أماكن اللّهُو التى تردد عليها المصريون يطربون ويرقصون ويشربون وقد شفغوا
بالبرك وراحوا يبحثون عنها فى كل مكان فإن لم يجدوها فى بقعة حازت إعجابهم وطب لهم
التنزه إليها حفروها فيها وجلبوا إليها الماء وأقبلوا على الخروج إليها جماعات فى المواسم وفى
غيرها، يقضون عندها الأيام الطوال والقصار فى فنون اللّهُو وصنوف السمر ويستحثون
الشعراء على التظم : من ذلك ماروى أن أبا البركات بن عثمان أخذ وردا أحمر وألقاه فى البركة
وطلب من رفيقه ظافر أن ينظم شيئا فيما رأى فقال :

وساعة جادَ بها العم رنام عن خلستها الدهرُ
والطيرُ والدولابُ يشولنا كطرب يتبعه زمرُ
والوردُ فوقَ الماءِ ما بيننا قد نُثرتُ أوراقه الصمرُ
لم ترعيني منظرا مثله ماء تلظى فوقه جمر(٢)

وانتشرت على شواطئ النيل وخلجانه أماكن المتع التى كان يفشاها جماعات الشعراء
يصف "البهاء زهير" واحداً من هذه الأماكن العديدة ومافيه من عيش رغيد ويستغفر ربه عما
اقترفه هناك من الملاذات :

حبذا نورُ على النّيل وكاساتُ تـمـورُ
ومسراتُ تموجُ الـ أرض منـها وتمـورُ

(١) الطالع السعيد ، هامش ، ص ١٢ .

(٢) ظافر الحداد ، د . حسين نصار ، ص ١١٣ .

وقصودُ مالِ العيشِ نلتُهُ فيها قصودُ
 كمُ بهَا قَدْ مرُّلى أستغفرُ اللهَ سرودُ
 كلُّ عيشٍ غيرُ ذاكِ العيشِ في العالمِ نودُ
 منزلٌ ليس على الأثرِ ضيُّ لهُ عندي نظيرُ^(١)

ويقدم لنا "البهاء زهير" في إحدى قصائده صورة كاملة من حياة المصريين في هذه الفترة وخروجهم للتنزه على اختلاف طبقاتهم، العابد والفاسق كل ينشد من التنزه ما يريد، ولكل نصيب، فمطاء الطبيعة المصرية وحياة شعبها يمنحان كل طالب مبتغاه :

نزانا شاطيء النسيل على بسط الأناهيرِ
 وقَدْ أضْحَى له بالمو ج وجْهُهُ نو أساريِرِ
 وفي الشَّمَطُ حبابٌ مثلُ أنصافِ القواريرِ
 تسابقنا إلى اللهوِ وواتيننا بتبكيِرِ
 وفينا ربُّ محرابِ وفينا ربُّ ماخوِرِ
 ومن قوم مساتيرِ ومن قوم مساخوِرِ
 ومن جدٍ ومن منزلِ ومن حرقٍ ومن ندرِ
 فطووراً في المقاصيرِ وطووراً في الساكيرِ

وينحاز الشاعر إلى طائفة المتمتعين بجمال الطبيعة وشرب الخمر يحتسونها في هذا المكان البهيج مع أنغام الشحارير وصوت النواعير :

علا حس النواعيرِ وأصوات الشحاريرِ
 وقد طاب لنا وقتُ صفوا من غير تكديرِ

(١) البهاء زهير ، د . عبد الفتاح شليبي ، ص ٩٩ .

فقم يا ألف مولاى أدرها غير مأمور
 وخذها كالدنانير على رغم الدنانير
 أدرها من سنا الصبح تزد نورا على نور
 عقارا أصبحت مثل هباء غير منشور
 بدت أحسن من نار رأتها عين مقور^(١)

الغزل بالغلمان :

ارتبط بالحديث عن الخمر ومجالسها حديث أدباء هذه الفترة عن سقاتها وما يتمتعون به من جمال ودلال وظرف، وقد أعجب "ابن النبيه" من ساقيه بطول القامة وضخامة الردين والتخث في الحركات ونعومة شعره المنسدل على جبينه.

يسعى بها عبل الروادف أهيفُ خنتُ الشمائل شاطرُ الحركات
 يهوى فتسبقه نوائبُ شعره ملتفتة كاساور الحيات

ومرة أخرى يوضح الشاعر شدة بياض وجه ساقيه مع شدة سواد شعره وترنحه فى مشيته وقد نحل خصره واكتنز عجزه :

ساق كأن جبينه فى شعره قمر تبلىج فى الليالى السود
 غصن ترنح ردفه فى خصره فعجبت للمعلوم فى الموجود^(٢)

وزيد فى وصف عينيه الدعجورين وشفثيه المعسولتين وزينته التى ارتسمت من المسك على هيئة خال فوق جبينه :

وضاح در الثغر معسولُ اللمى متضايقُ الأبقانِ رحبُ الجيد
 يلى على زرد العذارِ دلالة كسم فتنة بين اللوى وذود
 نبتت على الكافور مسكة خاله والمسك ينبت فى الظباء القيد^(٣)

(١) البهاء زهير ، د . مصطفى عبد الرازق ، ط ١ ، القاهرة : دار الكتب المصرية ١٩٣٠ ص ٨٣ ، ٨٤

(٢) ديوان ابن النبيه المصرى ، تحقيق عمر محمد الأسعد ، ص ١٢٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٤٦ .

ولعل ابن النبيه يتغزل في غلام تركى ذلك الذى وصفه بعينين دعجاويتين أما الشاعر أحمد بن بلال المعروف بدنقلة فإنه يتعزل في غلام نصرانى يدعى ابن النحال. ويحدثنا عما أصابه من ضنى وتحول بسبب هيامه به، ثم أخذ يصور لنا مفاتنه وقد تقلد الصليب وربط على خصره زنارا أبرز حسنه، وقد أحس الغلام جماله فراح يتيه دلالات على شاعره :

نحولى من بنى النحال بادِ بيدر لَقْبُوهُ أبا سعيدِ
تقلد بالصليب ومر يسعى إلى قريانه فى يوم عيدِ
ولاث بذلك الزنار خصرا حكى فى سقمه جسم العميدِ
سألتُ وصائله فأبى دلالات ومر على كالظبي الشريدِ
وقال إذا عشقتَ البدر فاقنع إليه برعى طرفك من بعيدِ(١)

وافتن الشعراء فى وصف القلمان ومفاتنهم الحسية والمعنوية، فتحدثوا عن الجيد والعينين والخدين والردين والرقّة والظرف والدلال، كما يعبر عن ذلك ابن قتادة المعدل المصرى :

أسباك منه جيده أم طرفه أم شكله أم دله أم طرفه
ياناظرى أم ورد وجنته الذى يلتذ للعين البصيرة قطفه
صافحته فشكت أنامله الأذى وتألت من لمس كفى كفه
فكان جسمى جفنه من سقمه أو خصره وكان همى ردفه(٢)

ويلاحظ على النماذج السابقة أنها لاختلف عما رده أتباع "أبى نواس" ولم تبرز لنا جانبا خاصا بعلام الشخصية المصرية إلا ما عكسه هذه الأشعار من أن الغزل بالذكر كان سمة المجتمع المصرى فى تلك الفترة، ولكن الشاعر "أبا الفخر الأسوانى" يقم لنا وصفا تنعكس عليه سمات الحياة المصرية. فقد اتخذ القاطميون من يوم عاشوراء يوما حزينا يرتدون فيه السواد تبو فيه الهيبة والوقار. ومع ذلك فإن الشاعر المصرى اللماجن يشد انتباهه فى ذلك

(١) ، (٢) الخريدة ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ، ٢٢٩ .

اليوم منظر غلام ليس ثوباً من الصوف فأخذ يغازله :

أيا شادنا قد لا ح في زى ناسكٍ فباح بمكنون الهوى كلُّ ماسكٍ
رويدك قد أعجزت ما يعجز الظبا وأضربت نيران الجوى المستدارك
أنحن فتكنا يابن بنت محمد فتثار مناً بالجفونِ القواتك ؟ (١)

وإذا كان بعض شعراء مصر تغزل بالفلمان من سقاة الخمر، وإذا كان بعضهم الآخر هام عشقا بهم ، ووصف مفاتن جمالهم، فإن فريقاً ثالثاً راح يمارس العشق تجربة ومباشرة جنسية. فابن سناء الملك يخبرنا عن ليلة من ليالى الوصال التى استمتع فيها يلثم الخرد ونال ما نال حتى مر الليل، وعندما مضى غلامه أخذ يمحو أثر خطوه بالقبلات لاسحب الذيل :

ظليُّ بحسما حالى الجيد بالعطلِ لكنُّه قد جلاه الحسنُ فى حليلِ
وبنت ماتلتُ مما لا أهمُّ به ولا ترقُت إليه همةُ الأملِ
ومرو الأيل قد غارت كواكبُه لما نوى الصبح تطفيلا على الطفلِ
لم أسحبِ الذيلَ كى أمحو مواطنُه لكننى قمت أمحو الخطو بالقبيلِ (٢)

وأبو الفخر الإسناوى يحدثنا عن علاقته بغلامه الذى يزعم أنه تعفف به عن اللواط والزنى. ولسنا ندرى بماذا يصف العلاقة التى كانت بينهما، والتى كانت سبب عفة الشاعر !؟

لى شادنٌ هو أذنى إلىُّ منُّ كان منى
به تعففتُ عما يصمُّ بالعذلِ أذنى
لأنَّه صان عريضى عتت أن الوط وأزنى (٣)

ويصف هذا الشاعر مواضع الفتنة فى غلامه، ويركزها فى ضخامة الردين :

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

(٢) الخريدة ، ج ١ ، ص ٨٥ . الطفل : آخر الليل عند الشروق .

(٣) الخريدة ، ج ٢ ، ص ١٦٠ .

كثيبُ رملٍ فوقه صَعْدَةٌ من فوقها بدر تمام أطلل
إن كان من سواك لا عابثا فانت مخلص لذاك العمل
ولم يكن ردك وعص الثقا إلا لأن تتركز فيه الأسل(١).

ويتغزل النظام المصرى فى غلام نحوى، فيقول :

تعر فى حلقة النحولة مرعى ونبيت
كلما أقبل يختال إلى الحليقة قلت :
ليتنا ظرفا مكان أنا فوق وهو تحت(٢)

وقد تبذل الأدباء فى محبينهم مما دفع العماد الأصفهاني ألا يثبت هذا الشعر فى خريدته واكتفى بذكر نماذج قليلة منه.(٣).

الفحش فى تصوير العلاقة بالمرأة :

واتخذ الفحش مظاهر مختلفة كان من أوضحها الغزل الحسى، بالمرأة فأحد الشعراء يصور لنا ليلة قضاها مع حبيبته فى العناق والضم بين الرياض وقد تجاوزت معها عوامل الطبيعة فالرياض تبدى له من أسرارها معانى دقيقة فتتولاها الريح بالتفسير والشرح :

وليلة بات فيها البدر يقضنا غيظا على قمرى إذ بات يقضه
والروض بيدي إينا من سرائره معنى يدق ولفظ الريح يشرحه
وقد تنامى بناضيق العناق إلى حد كطبق الجفنين أفسحه
كأنما قصد قلوبنا لقاؤهما دون الوسائط فى أمر نصحه(٤)

وهذا شاعر آخر يبيت ليلة مستمتعا بمحبوبته وقد نامت على عضده فيقبلها تارة

(١) الخريدة . ج ٢ ، ص ١٦٠ ، وعص : كتيب الرمل المجتمع .

(٢) ، (٣) الخريدة ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ، ص ١١٨ .

(٤) الخريدة ، ج ٢ ، ص ١٢ ، ٤ .

ويشعرها فعل الهوى تارة أخرى،

ويت ألتها طورا وأشعرها

فعل الهوى بسى وقد نامت على عضدى (١)

أما عمارة اليمنى فيفصح عن أمانيه التي يطمع في تحقيقها عندما ملا بيته
بالحسناوات:

فهذه بدرتُم وهذه غصنُ بانٍ

أورد من ذى إلى ذى وليس عئدى تـوانٍ

قسمتُ قسمةً عدلٍ والعدل فى الحبِّ شانى (٢)

مجالس الحشاشين :

انتشر شرب الحشيش فى البيئة المصرية فى أواخر القرن السادس الهجرى . ولعل
الصوفيين الذين كثر قنومهم إلى مصر فى عهد صلاح الدين هم الذين أتواها من بلاد الشرق
فى خراسان والعراق، وكان فى بستان الكافورى بمصر مزرعة مشهورة للحشيشة الجيدة،
فالشاعر زين الدين أبو عبد الله بن أبى بكر الحنفى يمدح الحشيشة فيصفها بخضرة اللون
وينسبها إلى البستان الكافورى ، وأنها تفعل فى العقول ماتفعله الخمر المعتقة ، وأن رائحتها
تدب فى الأعضاء والمفاصل، وأنه غنى بها عن شرب الخمر، وأنه ليس فى حاجة إلى أن يرتدى
أجمل ملابسه بل يستعيز عنها بالدلق الذى تعود الصوفى ارتداه :

وخضراء كافورئةً بات فعلها بالباينا فعل الرحيق المعثق

إذا نفحتنا من شذاها بنفحةٍ تدب لنا فى كلِّ عضوٍ ومنطق

غنيت بها عن شربِ خمرٍ معثوقٍ وبالذلقِ عن لبسِ الجديدِ المزوقِ (٣)

(١) الخريدة ، ج ٢ ، ص ١٢ ، ٤ .

(٢) ديوان عمارة اليمنى : ص ٢٨٢ .

(٣) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين د . محمد كامل حسين ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ .

وكما دعا الأدباء سقاة الخمر أن يناولوهم الكنوس دعا شرّاب الحشيش جلساعهم
وندماعهم إلى شربها :

أعطيني خضراءً كافوريةً يكتبُ الخمرُ لها من جندها
أسكرتُنا فوقَ ما تُسكّرُنا وريحنا أنفسنا من حدها (١)

وقد اختلفت صورة الحشيش في الشعر المصري حسنا وقبحا نظرا للاختلاف
أمزجة المصريين فمنهم من ذمها وقبحها ، وفضل الخمر عليها وراح يعدد عواقبها الوخيمة ،
فالحشيش في نظره تفضي إلى البغاء أو الجنون أو مرض آخر من الأمراض العقلية :

لحَا اللُّهُ الحشيشَ وأكليها لقد خبئتُ كما طابَ السِّلْفُ
كما تُسبى كذا تُضنِّي وتُشقي كما يُشقى وغايتها الخرافُ
وأصفرُ دانتها والداءُ جمٌ بغاءٍ أو جنونٍ أو نشافٍ (٢)

وذهب آخرون إلى تفضيلها على الخمر ، وعددوا مميزاتا وفوائدها: فالحشيشة
يتعاطاها الشاربون جهارا في المساجد والربط، وسعرها رخيص في متناول الأيدي ، ولونها
أخضر يحاكي لون الجنة. وهي تشدُّ انتباه متعاطيها فتذكرهم بأسرار الجمال وتقوى
أحاسيسهم نحوه، ولا يعاقب عليها الشرع أو القانون ولا تحول أيام العبادة بون تعاطيها ، ولها
فوائد طبية حيث تسهل الهضم :

وحقك ما بالخمرِ بعضُ صفاتها أنشربُ جهراً في رباطٍ ومسجدٍ
عليك بها خضراء غير ممانع بأيخضٍ ورقٍ أو بأحمرٍ عسجدٍ
ولكنْ على رغم المدام هدية تنزه عن بيع بغير التزهـد
رياضية يحكى الجنان أخضرارها وخمرهم كالمارج المتوقدِ
مدامهم ينسى المعانى وهذه تذكرُ أسرارَ الجمالِ الموحـدِ
وتخلص من إثمٍ وحدٍ ولا ترى ذليلاً وتنجو من نديمٍ معربـدِ
وتشربها في العسرِ واليسرِ دائماً ولا تنقى فيها ليالى التعبـدِ

(١) ، (٢) دراسات في الشعر في عصره الأيوبيين د . محمد كامل حسين ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ .

ومن فضلها في الطبُّ جودةٌ مضمها وهيئاتٌ يُحصى فضلها لمعدد^(١)

والحشيشة تبعث في النفس المرح والسرور والشعب المصري يميل إلى المرح والسرور فانتقلت من الصوفيين إلى عامة الناس فأقبلوا عليها، وأحس الملك الصالح نجم الدين أيوب بآثارها السيئة على الناس فمنعها وحرم زراعتها في البستان الكافوري ، وذات يوم دخل البستان فرأى فيه منها شيئا كثيرا فأمر ، بأن يحرق ، فتأسف لذلك الحادث مدمنوها وعبر أحد الشعراء عن لسان حالهم بقوله :

أسفاً لدهرٍ غالها ولربما	ظلَّ الكريمُ بذلةِ المأسورِ
جمعتُ له الأشهاد كرمأ أخضرا	كهروسةٍ تجلى بخضرٍ حريرِ
زفوا لها نارا فخلنا جنَّة	برزت لنا قد زوجت بالنورِ
لم اكتسبت منها غلالةً صفرة	ففى خضرةٍ مقرونةٍ بزفيرِ
فكانها لهبُ اللظى فى خضرة	منها وطرفُ رمادها المنتورِ
جارى الثضارُ على مذابٍ زمرُّ	تركا فتيت المسك فى الكافورى
لله بركٌ حيةٌ أو ميتة	من منظرٍ بهيجٍ بغيرِ نظيرِ
أونيتٍ غيرِ ذميعةٍ فسقى الحيا	ترباً تضمَّن منك نوباً عبيرِ
عندى لذكرك ما بقيت مخلداً	سحُ الدموعُ ونفثةُ المصورِ ^(٢)

مظاهر الزهد والتصوف

من المظاهر الاجتماعية ذات الدلالات النفسية فى تصوير الشخصية المصرية انتشار الحركة الصوفية فى مصر، وقد شغلت هذه الظاهرة جانبا غير قليل فى الأدب المصرى شعره ونثره، وأصبح الأدب الصوفى غرضا متميزا عن غيره من أغراض الشعر والنثر ولاسيما فى القرنين السادس والسابع للهجرة ، حيث أسهم كبار رجال الصوفية المصريين بإنتاجهم الأدبى

(١) المرجع السابق ص ١٠٩ ، ١١١ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٢ .

أمثال : ابن الكيزاني، وابن الفارض، وابن الصباغ القوصي، وإبراهيم الدسوقي. وابن عطاء الله السكندري، وأبي الحسن الشاذلي وغيرهم.

وقد مرت الصوفية بأطوار مختلفة في مصر، وعلاقة الحركة الصوفية فكفر أو تطبيق مع الشخصية المصرية محك للكشف عن بعض خصائصها ومميزاتها.

وفيما سبق أشرت إلى نشاط سليم بن عتر التجيبي في مصر وما كان يقوم به في مسجد القسطنطين، من قصص ومواعظ وإرشادات، إبان القرن الأول الهجري.

وكانت هذه النهضة الصوفية في مصر مماثلة لنشأتها في بقية الأمصار الإسلامية فقد عرفت الكوفة والبصرة لونا من هذا التصوف في تلك الفترة تمثل في تلك المواعظ وهاتيك الحكايات التي كانت تلقى في مساجد الأمصار الجامعة بقصد التخفيف من غلواء النزعة المادية التي أخذت تغزو المجتمع العربي الإسلامي وقتذاك.

ولكن هذه الفكرة الصوفية البسيطة المحببة إلى نفوس المصريين بدأت تأخذ شكلا آخر في أوائل القرن الثالث الهجري حينما أخذت الصوفية تحدد لها فكرا خاصا حيال سلوك الإنسان الظاهري والباطني تجاه الدنيا ونحو الله، وتجلت هذه النزعة فيما رواه أبو الفيض نو النون المصري فهو يناجي الله قائلا : "لئن مددت يدي إليك داعيا لطلما كفيتني ساهيا... أقطع منك رجائي بما عملت يداي حسبي من سؤالي علمك بحالي".

ويروي للناس قصصا يذكر فيها "المقامات" و "الأحوال"^(١). وقد وضع الدكتور محمد كامل حسين اختلاف الدارسين حول مصدر آراء ذى النون، فمن قائل إنه أخذها عن أستاذه شقران العابد، وقيل عن فاطمة النيسابورية، وقيل عن رهبان الأديرة في مصر الذين لقنوه شيئا من تعاليم الأفلاطونية الحديثة، ومهما يكن من أمر هذه الاختلافات حول أصول فلسفة ذى النون الصوفية. فإننا نراه يتجه في صوفيته إلى لون جديد لم نعهده في صوفية مصر من قبل، ظهر فيما اصطلح على تسميته (الحب الإلهي) فلا غرابة أن نرى المسلمين بمصر لا يقبلون منه هذا الرأي الديني الجديد ورموه بالزندقة وحمل في محنة خلق القرآن إلى الخليفة المتوكل العباسي، ولذلك نرى أن أكثر الذين أخذوا بآراء ذى النون الصوفية ودعوا إلى مذهبه لم يكونوا

(١) الأدب الصوفي مصر ، د . علي صافي حسين ، ص ١٥١ .

من أهل مصر، بل لم يكن له أثر يذكر في مصر، فنحن لانجد في عصره ولا في العصر الذي يليه مباشرة من قال في مصر مقالته أو اتخذ طريقته بل عاد صوفية مصر إلى الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإلى الزهد، واستمر الحال على ذلك حتى القرن الرابع للهجرة^(١). وقبول المصريين للتصوف بهذا المعنى أمر يتفق وخصائص الشخصية المصرية التي كوئتها عوامل البيئة الجغرافية، وصقلتها التيارات الحضارية المختلفة، فصحراء مصر وواديها المنبسط واعتدال مناخها وصفاء جوها عوامل ساعدت على تكوين شخصية صافية النفس. وصفاء النفس أول درجة في سلم الصعود إلى التصوف وشرط أساسي لتقبله.

ولم يكن نظام التعبد بالخلوة أو الانقطاع عن الناس أمرا غريبا عن المصريين فلقد ابتدعت مصر الرهبنة وعلمتها أما كثيرة غيرها.

وكان رفض المصريين قبول الأفكار الصوفية ذات الصبغة الفلسفية أمرا مقبولا أيضا في تلك الفترة إذ لم تكن النفوس قد تهيأت بعد لقبول هذه الأفكار. وبهذا تحددت معالم الصوفية في مصر إبان القرن الثالث للهجرة، وهي لون من ألوان الورع والزهد والحض على التقرب إلى الله تعالى بالعبادة، ففكرة التصوف الفلسفي لم تكن معروفة في مصر قبل العصر الفاطمي.

وفي القرن الرابع الهجري أخذت الصوفية في مصر مظهرا جديدا عندما استفل دعاة الشيعة استعداد المصريين لتقبل المبادئ الصوفية في صورها المبسطة وراحوا يبثون دعواهم من خلال هذا الاستعداد، فكان الدعاة الشيعيون يظهرون الزهد والورع لجذب من لم يعتنق الدعوة، فكان الدعاة للإسماعيلية لم يختلفوا في مظهرهم عن الصوفية الذين عرفتهم مصر من قبل، وكان الدعاة يأمرن العامة بالتمسك بالعبادة العملية التي تعرف عند الإسماعيلية بالعلم الظاهر وينشرون بين الخاصة العبادة التي سموها "علم الباطن" أو التأويل، وهنا اقتربت بعض آراء المتصوفة من آراء الإسماعيلية^(٢).

واهتمت السلطات الحاكمة بالصوفيين، فأخذت تشجعهم، وتقيم لهم نوعا من التنظيم.

(١) ، (٢) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، د . محمد كامل حسين ، ص ٥٣ .

فالخليفة الأمر الفاطمي جدد قصر القرافة وعمل تحته مصطبة للصوفية فكان يجلس في الطابق بأعلى القصر، ويرقص أهل الطريقة من الصوفية والمجامر بالألوية موضوعة بين أيديهم والشموع الكثيرة تزهر وقد بسط تحتهم حصر من فوقها بسط، ومدت لهم الأسطة التي عليها كل لذيذ وشهى من الأطعمة والحلوى ، وكان بين الحاضرين الشيخ أبو عبد الله بن الجوهري الواعظ وعليه مزق مرقعة على العادة خرقة ، وسأله الشيخ أبو إسحق إبراهيم المعروف بالقارح المقرئ خرقة منها ووضعها على رأسه (١) .

ويصور الأمير تميم بن المعز حالة الصوفيين الفقراء، وقد اتخذوا من القرافة مأوى وسكنا، فأصبحت القرافة بطولهم فيها عامرة بالطهر والعفاف، نسيمها الطيب يحيى النفوس، وشمسها بهيجة مشرقة، وسكانها : مابين مؤذن بالليل، وذاكر ربه خاشعا ومبتهل إلى الله بطول الدعاء :

إذا كنت مصطفياً مربعاً	فحص القرافة بالاصطفاء
منازل معمورة بالعفا	فمخصوصة بالتقى والبهاء
كان العبير لها تربة	تضوع في صبحها والمساء
ويحيى النفوس بأرجانهن	رقيق النسيم وطيب الهواء
ديار أدير بهن النعيم	ومغنى كملتد رجع الغناء
تزيد الشموس بها بهجة	وتحسن في مقلتي كل راء
وينسب فيها النيام الأذان	إذا مزق الليل سيف الضياء
فمن ذاكر ربه خشية	ومن مستهل بطول الدعاء (٢)

ولاشك أن بعض هذا السلوك الصوفي صادف هوى في الشخصية المصرية ، فحلقات الذكر والرقص والإنشاد والطرب والطعام والشراب، والإسراف في المظاهر أيا كانت مظاهر ثراء أو فقر حبيت الصوفية إلى نفوس المصريين، ومن ثم فإن إقبال المصريين على التصوف

(١) المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٢) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي ، ص ٢٧ .

العملى كان بدافع حسى أو عاطفى وجدانى أكثر منه اندفاعا بسبب متصل بالفكر أو العقيدة أو الفلسفة.

وفى العصر الأيوبي أخذت الحركة الصوفية فى مصر مظهرين :

١ - مظهرا اجتماعيا يتمثل فى التنظيمات الرسمية والشعبية للصوفية.

٢ - مظهر فكريا يتمثل فى انتشار بعض الأفكار والمبادئ بأسلوب خاص فى الأدب العربى شعره ونثره. ففى سنة ٥٦٩ هـ وقف صلاح الدين الأيوبي دار سعيد السعداء للفقراء المتصوفين القادمين من البلاد المختلفة وولى عليهم شيخا كما وقف عليهم بستان الحبانية (بجوار بركة الفيل) وقيسارية الشراب بالقاهرة وناحية دهمور من البيهنساوية، وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين دينارا قمات دونها كانت للفقراء ولايتعرض لها الديوان السلطانى، ومن أراد منهم السفر يعطى تسفيره، ورتب لهم فى كل يوم طعاماً واحماً وخبراً وبنى لهم حماماً بجوارهم (١) .

فكانت دار سعيد السعداء (٢) أول خانقاه أقيمت للصوفية فى عهد الأيوبيين، ثم توالى بعد ذلك الخوانق فى مصر حتى كثرت، واسترعى كثرتها انتباه "ابن بطوطة" فقال : "بمصر

(١) دراسات فى الشعر فى عهد الأيوبيين د . محمد كامل حسين ص ٦٤ .

(٢) الخانقاه والرباط والزاوية وجمعها خوانق ورباطات وزوايا معاهد دينية إسلامية للرجال والنساء وهى كالأديرة فى المسيحية ويطلق الرباط أحيانا على الدير المسيحى كما يقال للراهب المسيحى رابط . غير أن تلك المعاهد الإسلامية لم تكن يوماً للرهينة وإنما أنشئت لإيواء المتقطعين للعلم والزهاد والعبادة وكان غرض منشئتها والمتصدقين عليها فعل الخير واكتساب الثواب . لفظ الرباط والزاوية عرييان . فأصل الرباط مكان إقامة الحامية المرابطة عند ثغور العدو كما أن الزاوية فى الأصل الركن من الدار أو المكان عامة (محيط المحيط) أما الخانقاه ففارسية ومعناها البيت وهى حديثة فى الإسلام وجعلت لتخلى الصوفية فيها للعبادة والتصوف وأول من أحدث الخوانق فى مصر السلطان صلاح الدين الأيوبي . وكانت الخانقاه التى أنشأها دارا تعرف أولا بدار سعيد السعداء نسبة إلى الأستاذ قنبر سعيد السعداء عتيق الخليفة المستنصر الفاطمى وكانت هذه الدار مقابل دار الوزارة فلما كانت وزارة العادل رزىك بن الصالح طلائع بن رزىك مكنها وفتح من دار الوزارة إليها سر داباً تحت الأرض ليمر فيه ثم سكنها الوزير شاور بن مجبر فى أيام وزارته ثم ابنه الكامل فلما ملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذى مصر بعد موت الخليفة العاضد وغير مرسوم الدولة الفاطمية ووضع من قصر الخلافة وأسكن فيه أمراء دولته الأكراد عمل هذه الديار يرسم الفقهاء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم فى سنة تسع وستين وخمسماية . انظر السلوك ، ج ١ : هامش ص ٦٢

يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم المعدمين وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ولكل زاوية شيخ وحارس وترتيب أمورهم عجيب^(١).

ولا شك أن كثيرا من المصريين اتخذ طريق التصوف حتى ينعم بما كان ينعم به غيرهم من سكان الخوانق أي أنهم اتخذوا التصوف وسيلة للحياة الدنيا^(٢).

ويرتبط بالمظهر الأول أهداف سياسية للدولة الأيوبية فقد أراد الأيوبيون اقتلاع جذور الفكر ، الشيعي من مصر بعد القضاء على حكمهم. ولما كانت الدعوة الشيعية الإسماعيلية قريبة في بعض نواحيها من الفكر التصوفي الفلسفي، فقد فكر الأيوبيون في مناهضة الفكر بالفكر وراحوا يستقدمون كبار رجال الصوفية من مختلف البلاد : فوفد على مصر عدد كبير من الصوفية الغرباء منهم : محيي الدين بن عربي، وأبو الحسن الشاذلي، والسيد أحمد البليوي فهؤلاء وأمثالهم من زعماء المتصوفة هم الذين دخلوا مصر حاملين آراء الصوفية التي لم تعرفها مصر من قبل وكان لهم أثر في تطور التصوف بما جلبوه معهم من آراء جديدة^(٣).

وقد يبدو غريبا أن تقبل مصر على هذا النمط من التصوف وهو التصوف الفكري لأنه يناقض ما عرفت به الشخصية المصرية من البساطة والمرح والتمتع وهي الصفات التي حددت موقفها من التشيع، وموقفها من التصوف بمعناه البسيط (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) أو الانقطاع للعبادة أو الجانب العملي منه كاللجوء إلى الخوانق والانضمام إلى حلقات الرقص والإنشاد .

ولكن الدكتور محمد كامل حسين يحاول تفسير شيوع هذا النوع من التصوف الفكري ويرده إلى الظروف التي أحاطت بنشاط "ابن الكيزاني" الشاعر الصوفي الذي ظهر في أواخر العصر الفاطمي، وكان يؤمن بمذهب الحب الإلهي ويمزجه بالمواقف الوعظية كما يبدو في قوله :

أصرقُوا عنسِي طَيِّبِي ودعوني وحبيبي
علُّوا قلبي بذكرَاه فقَدْ زَادَ لهيبي

(١) ، (٢) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، د . محمد كامل حسين ٥ ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٦ .

طابَ فْتِكِي فِى هَوَاهُ بِسِينِ وَاشِرٍ وَرَقِيْبِ
 لا اُبَالِى بِفَوَاتِ النَّفْسِ مَا دَامَ نَصِيْبِي
 لَيْسَ مِنْ لَامٍ وَاِنْ اَطْنَبَ فِىهِ بِمَصِيْبِ
 جَسَدِي رَاضٍ بِسَقْمِي وَجَفُوْنِي بِنَحِيْبِي (١)

وقد كان لطريقة "الكيزانى" أثر فى نفوس المصريين، فقد أقبلوا عليها ليشغلوا الفراغ النفسى الذى تركه الدعاة الإسماعيليون. ولما وجد المصريون أنفسهم بعد انقراض النبوة الفاطمية قد حرموا مما يغذى عاطفتهم الدينية فى أية صورة كانت ، اتجهوا للتصوف وأحلوه فى نفوسهم وحياتهم محل ماكان يسمعونه من الدعاة الإسماعيليين. وذلك للتقارب الشديد بين آراء الصوفية وآراء الإسماعيلية، فالدعاة الفاطميون يتخونون من العقل طريقة للوصول إلى المعرفة وإلى الله ، والمتصوفة يريدون أن يصلوا بالمزيد الى المعرفة وإلى الله عن طريق التوق والريضة.

والحياة المصرية فى ذلك العصر كانت تدعو إلى شىء من الاستسلام للمقادير والاتجاه إلى الله، والزهد فى الدنيا، فالحروب الصليبية، والفتن الداخلية جعلت المصريين يتلعبون إلى لون من ألوان الحياة الروحية عساها تخفف عنهم هذه الآلام التى حاقت بهم من كل جانب. وكان المصريون فى العصر الفاطمى يهرعون إلى الدعاة ويستغيثون بالأئمة اعتقاداً منهم بأن الأئمة ملائكة مستغيث، وكانت العقيدة الإسماعيلية تأمرهم بذلك ، وفى العصر الأيوبي لم يجد المصريون هذا الملاذ فاتجهوا إلى شيوخ الطرق الصوفية (٢) .

وقد ظهرت فى الأدب المصرى أفكار جديدة ردها الصوفيون فى قصائدهم ورسائلهم المتبادلة فيما بينهم، ومواقف الرعظ والتذكير، والأوراد التى يتعبدون بها واقتترنت هذه الأفكار بأسلوب خاص. ولست هنا بصدد دراسة الفكر الصوفى فى الأدب المصرى، وإنما أكتفى بالإشارة إلى بعض هذه الأفكار التى سادت فى تلك الحقبة كمظهر من مظاهر الشخصية الاجتماعية بعد أن درست علاقة هذه الشخصية بتطور المفهوم الصوفى وممارسته سلوكاً

(١) الخريدة ، ج ٢ ، ص ٢٠ .

(٢) دراسات فى الشعر عصر الأيوبيين ، د . محمد كامل حسين ، ص ٦٥ .

ومن أهم هذه الأفكار "فكرة الحب الإلهي" التي ردها كثير من الصوفيين في ذلك العصر من أمثال ابن الفارض في قوله :

نسختُ بحبي آيةَ العشقِ من قبلى فاهلُ الهوى جنديّ وحكمي على الكلِّ
وكلُّ فتى يهوى فإنسى إمامه وإنى برىء من فتى سامعِ العذلِ (١)

وإبراهيم السوقي في قوله :

سقاني محبوبي بكأسِ المحبةِ قتهتُ عن العشاقِ سكرأ بخلوتي
ولاح لنا نورُ الجلالة لوأضاء لصمّ الجبالِ الراسياتِ أدكتِ
وكنتُ أنا الساقى لمن كان حاضرا أطوفُ عليهم كرةً بعد كرةٍ
ونادمني سرأ بسرٍ وحكمةً وأن رسولَ اللهِ شيخى وقدوتى (٢)

وفكرة "النور المحمدي" القائمة على أساس أن محمدا نشأ قبل آدم وأن سره وجد قبل خلق الكون فكان النور المحمدي الذي شهده الأنبياء السابقون جميعهم، فسره تنقل من طور إلى طور حتى ظهر في هذا القطب شيخ الوقت، ويعبر إبراهيم السوقي عن هذه الفكرة بقوله :

نعم نشأتى في الحب من قبل آدم وسرى في الأكوان من قبل نشأتى
أنا كنتُ في العلياء مع نورِ أحمد على الدرّة البيضاء فى خلوتي
أنا كنتُ فى رؤيا النبيح فداءه بلطفِ عناياتِ وعينِ حقيقةِ
أنا كنتُ مع إدريس لما أتى العلا وأسكن فى الفردوسِ أنعم بقعةِ
أنا كنتُ مع عيسى على المهد ناطقاً وأعطيتُ داودا حلوة نعمةِ
أنا كنتُ مع نوح بما شهد الورى بحاراً وطوفاناً على كفا قدرةِ
أنا القطبُ شيخُ الوقتِ فى كلِّ حالةٍ أنا العبدُ إبراهيمُ شيخُ الطريقةِ (٣)

(١) ديران ابن الفارض ، ص ٩١ ، القاهرة مطبعة الهيئة (مؤسسة المطبوعات المصرية) ، ٢٥٢ هـ .

(٢) ، (٣) دراسات فى عصر الأيوبيين د . محمد كامل حسين ، ٧٥ ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

ومنها فكرة "العلم بالباطن" وكان ابن العربي يقول بأن العلم الشرعى يوحى به إلى الرسول (ص) على لسان الملك أما العلم بالباطن عند الولي فهو إرث يرثه الولي عن خاتم الأولياء الذى يرثه بدوره من منبع الفيض الروحى جميعه أى الحقيقة الحمديّة، ويقول أبو السعود بن أبى العشائر الصوفى المصرى المتوفى سنة ٦٤٤ هـ "الطلب شغل الظاهر والمطلوب شغل الباطن ولا يستقيم ظاهر إلا بباطن ولا يسلم باطن إلا بظاهر" ونظم ابن الفارض هذه الآراء فى قوله :

فخذُ علمَ أعلامِ الصِّفَاتِ بِظَاهِرِ الْعَالَمِ فِي نَفْسٍ بِذَلِكَ عَلِيمَةٌ
 وَفَهْمِ أَسَامِي الدِّمَاتِ عَنْهَا بِيَاطِنِ الْعَوَالِمِ مِنْ رُوحٍ بِذَلِكَ مَشِيرَةٌ (١)
 ومنها فكرة : "الفناء والاتحاد بالذات الإلهية" التى يعبر عنها أحد شعرائهم :

وَمَا أَنَا أَبْدَى فِي اتِّحَادِي مَبْدَنِي وَأُنْهَى انْتِهَائِي فِي تَوَاضُعِ رَفْعَتِي
 جَلَّتْ فِي تَجَلِّيْهَا الْوُجُودَ لِنَاظِرِي ففى كُلِّ مَرْنِي أَرَاهَا بِرُؤْيَتِي (٢)

ومنها فكرة "وحدة الوجود" التى عبر عنها ابن الصباغ فى كلام منشور أورده على سبيل الوعظ والإرشاد أو التوجيه والتعليم، قال : إذا تخلص العبد إلى مقام المعرفة أوحى إليه يخاطره، وحرس بسرّه أن يسبح فيه غير خاطر الحق وشاهد القدم، فهو إذن للحق جميع معانيه وصار الحق مواجهه، فهو كل منظور إليه ومقابله على الظاهر (٣).

تَسْرِيْلَ وَقْتِي فِيكَ فَهُوَ مُسْرِيْلُ وَأَقْنِيْتِي عَنِّي فَعَدْتُ مَجْدُدًا
 وَكُلُّ بَكْلِ الْكُلِّ وَصَلُّ مَحَقِّقُ حَقَائِقُ حَقِّ فِى نَوَامٍ تَخْلُدَا
 تَفَرَّدَ أَمْرِي فَانْفَرَدْتُ بِقَرِيْبَتِي فَصُرْتُ غَرِيْبًا فِي الْبَرِيَّةِ أَوْحِدًا (٤)

وكما حمل لنا الأدب الصوفى بعض الأفكار التى كانوا يعتقدونها فإنه قدم لنا وصفا

(١)، (٢) دراسات فى الشعر فى العصر الأيوبي، د. محمد كامل حسين، ص ٧٢، ص ٨١.

(٣)، (٤) الأدب الصوفى فى مصر، د. على صافى حسين، ص ٩٨.

لبعض المناصب التي تنخرط في سلك التنظيم الصوفي، من ذلك وصف أحوال (المريد) كما عبر عنه ابن الصباغ بقوله : "إذا تخلص العبد إلى مقام المعرفة أوحى إليه بخاطره وحرس سره أن يسبح فيه غير خاطر الحق وشاهد القنم فهو إذا منفرد للحق في جميع معانيه وصار الحق مواجهه فهو كل منظور إليه ومقابله على الظاهر، ومن أسكرته نار التوحيد حججته عن عبارة التجريد، ومن أسكرته أنوار التجريد نظر عن حقائق التوحيد وحياء الموحدين من مولا هم أزال عن قلوبهم سرور المنة وحياء الأولياء من لحظ عظمة ربهم أزال عن قلوبهم سرور الطاعة"^(١).

(١) الأدب الصوفي في مصر، د. د. علي صافي حنين، ص ١٨٦.